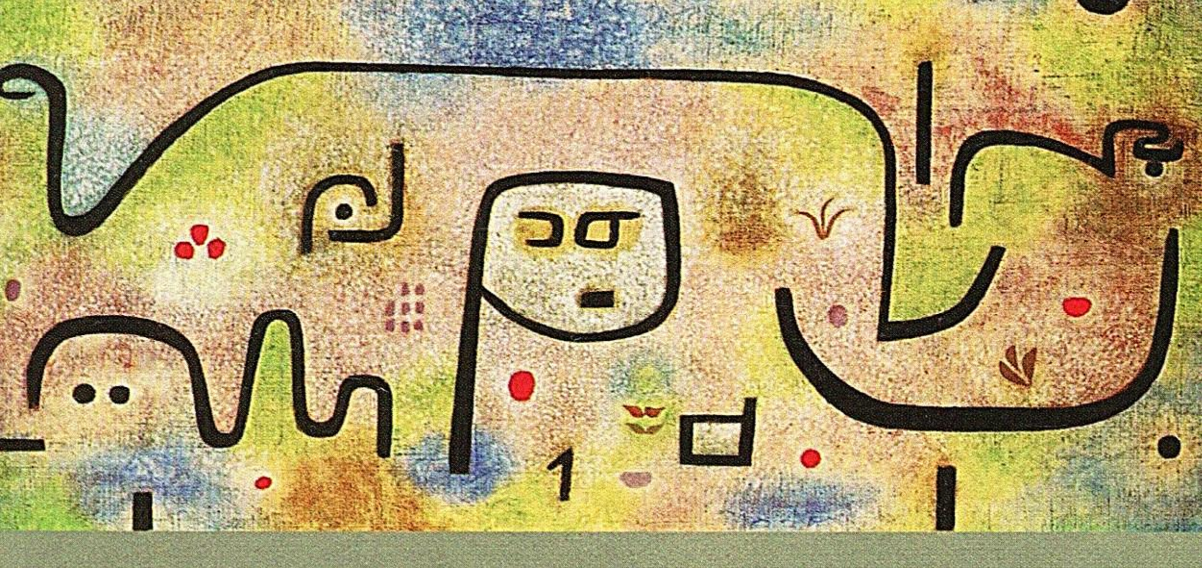


أُمبرتو إيكو

دروس في الأخلاق

ترجمة: سعيد بنگراد



امبرتـو إيكـو

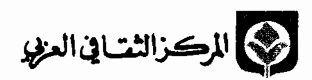
دروس في الأخلاق



أمبرتــو إيكــو

دروس في الأخلاق

ترجمة : سعيـد بنكـراد



الكتاب

دروس في الأخلاق

المؤلف

أمبرتو إيكو

ترجمة

سعيد بنگراد

الطبعة

الأولى، 2010

عدد الصفحات : 152

الترقيم الدولي

ISBN: 978-9953-68-469-3

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء (المغرب)

ص. ب : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف : 303339 522 ـ 307651 522

فاكس : 305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت (لبنان)

ص. ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف : 01750507 ـ 01352826

فاكس : 01343701 ـ (9611+)

www.ccaedition.com

Email: cca@ccaedition.com

cca_casa_bey@yahoo.com

العنوان الأصلي للكتاب :

Cinque scritti morali

Umberto Ecco

المحتويـات

مقدمـة المترجـم

يضم هذا الكتاب الذي نقدم ترجمته لقراء العربية خمس مقالات كتبها أمبيرتو إيكو، على فترات متباعدة، تتناول سلسلة من القضايا الخاصة بالوجود الإنساني، منها الأخلاق والعلمانية والتدين والثقافة والمثقف والعلاقة مع الآخر وغيرها من الموضوعات ذات الطابع القيمي العام. وليس في نيتنا تقديم ملخص لهذه المقالات أو بسط القول فيها، فهذا أمر لا ترجى منه فائدة، فالنص يُغني عن التلخيص، والتلقي المباشر أهم من وساطة مترجم لا يمكن تبرئة ذمته، فهو ينقل ما يشتهيه، لا ما يبحث عنه القارئ بالضرورة.

ومع ذلك، فإن ما يقوله العنوان وحده كاف لأن يثير الكثير من التساؤلات حول مقولة الأخلاق، فهي تكاد تكون الثيمة الرئيسية للكتاب كله. فمقولات من قبيل «سوء الفهم» و«الجهل» بخصوصيات الآخر و«الدونية الحضارية» و«التفوق العرقي» مواقف تندرج كلها ضمن ما يمكن أن يشكل أخلاقا

تُعتمد في الحكم على الآخر وتصنيفه. فالـ «نحن» غامضة دائما، لأنها تعتمد معاييرها للحكم على الآخر وتحديد المقبول والمرفوض والمحبذ والمكروه عنده. وباسم هذه الرؤية تمت في كثير من مراحل التاريخ مقاضاة الآخرين والحكم على سلوكهم، بل وإعلان الحرب عليهم. فالـ «نحن» التي قادت الحرب في أفغانستان والعراق وغيرها من مناطق العالم ليست آتية من خارج التاريخ، إنها ثمرة من ثماره، وجزء من سيرورة حضارية تشكلت باعتبار هويتها تلك في علاقتها بالآخرين لا في انفصال عنهم. ولذلك، لا يمكنها أن تتحدد باعتبار ذاتها، أي باعتبار المخزون الأخلاقي عندها، بل يجب أن تقيس أخلاقها بأخلاق الآخر (إن العزلة لا تقود إلا إلى الفاشية).

وهو ما يعني استحالة تحديد الدوائر الأخلاقية لـ «الأنا» دون الإشارة إلى تلك التي تخص «الآخر». فهذه الدائرة ممكنة الوجود في حدود وجود أخلاق أخرى، لا تناقضها بالضرورة، ولكنها قد تجعل منها أمرا ممكنا، أو تكشف عن تهافتها. فمن السهل جدا اتهام الذين كانوا يقدمون أبناءهم قربانا للآلهة بالهمجية والتوحش، لأنهم ذبحوهم أو القوا بهم في البحر أو النهر. وفي المقابل، من الصعب إقناعهم بأن إلقاء قنبلة ذرية على مدينة وتدميرها بمن فيها وما فيها يدخل ضمن شرعية استعمال العنف من أجل درء عنف أشد.

والحاصل، أنه إذا كانت المبادئ الأخلاقية كونية من حيث إنها دالة على وعي الذات بحدودها في علاقتها بالآخر، ومن

حيث كونها تشير إلى إحساس إنساني يكشف عن تقدير الذات لنفسها في المقام الثاني، فإنها مع ذلك، ليست كذلك إلا في الظاهر؛ فهي تختلف بالضرورة باختلاف الأسس العقدية والثقافية والمعرفية التي تقوم عليها. فأخلاق الدين ليست هي أخلاق العلمانية، فهي في الدين تعاليم فوقية أصلها غيبي، أما في العلمانية، فلا علاقة للمضامين الفعلية للسلوك الأخلاقي بالأصل العقدي الذي يسندها.

وهي حقيقة يفسرها اختلاف الأديان في تقويمها للمبدأ الأخلاقي، فهي لا تنظر إلى السلوك الإنساني من المنظور ذاته إلا في النادر من الحالات. ومثال البوذية بالغ الدلالة في هذا السياق، فقد أسست نظاما أخلاقيا دون أن تولي أهمية تذكر لفرضيات الآخرة والحساب والعقاب، بل إن الله ذاته لا ذكر له في هذا المعتقد، فالجهاد ضد النفس وحده يعد أساسا للأخلاق وهو مضمونها الأول والأخير. فليس الدين هو من يمنعنا من ارتكاب المجازر، إن الشر فينا، «إنه غريزة تسكن حتى أولئك الذين يؤمنون بمقولة للخير قائمة على أسس دينية»؛ فما يميز هذا السلوك عن ذاك، هو قدرة الفرد على تصور الشر ضارا والخير مفيدا، دون تبرير ذلك خارج السلوك ذاته.

وهذا أمر بالغ الدلالة، فالدين يحتكم إلى مقولتي الحلال والحرام، أو ما يندرج ضمنهما بالصراحة أو التلميح، من أجل تقويم السلوك الفردي والجماعي، بينما يحتكم السلوك الوضعي إلى المصلحة، مصلحة الفرد والجماعة ولا شيء غيرهما.

لذلك، فإن الإنسان حاضر في النظام الأول باعتبار التزاماته تجاه الله، وهو في الثاني محكوم بالقواعد التي تنظم السلوك اليومي وفق ما تعارف عليه أفراد مجموعة بشرية ما خارج أية مردودية سوى مردودية هذا السلوك في الوجدان ورضا النفس والآخر، دون أن يعني ذلك حرمان الفرد من حقه في أن يؤمن بما يشاء من العقائد. لذلك، فإن السلوك الديني ينتج مؤمنا لا يراقبه إلا الله، أما الموقف العلماني فيبني مواطنا خاضعا للقانون.

وتلك هي الحدود الفاصلة بين فضاء عمومي يحتضن الفرد ويحمي خصوصيته ويمنحه الحق في إعلان اختلافه في الرأي والمعتقد، وبين قانون اجتماعي يجعل هذا الفضاء ملكا للدولة والدين والمجتمع. فكل شيء يبدأ من هذا الفضاء وينتهي عنده، وما يتبقى بعد ذلك، فإن مثواه قناعات الفرد وحريته في تدبير شؤون إيمانه وفق ما يشاء. علينا أن نعيش الدين باعتباره قناعة فردية، لا باعتباره إكراها اجتماعيا.

استنادا إلى ذلك، فإن حديث المؤلف عن المثقف والانتماء والصحافة والنزوح والهجرة والتسامح وغير المسموح به، لا يمكن فصله عن الخلفية الثقافية/الحضارية التي تشكل عنده غطاء قيميا مخصوصا يتباهى به الغرب اليوم ويعتبر كونيتَه انتصارا لحضارة جاهدت، على مدى خمسة قرون (وهي القرون التي تؤرخ للنهضة الأوروبية)، لإرساء أسسه وقواعد تطبيقه في كل ربوع أوروبا. بل إنها تطمح اليوم، في بداية القرن الحادي والعشرين، إلى تعميمه باعتباره أداة «لتوحيد»

العالم حول قيم كونية تحتفي بالإنسان وحده خارج كل الإكراهات عدا الاستجابة لكرامته وحريته.

ومع ذلك، وباسم هذا الغطاء أيضا، يتم التدخل بقوة السلاح والسياسة والاقتصاد، في مناطق مختلفة من العالم، لتغيير الخرائط أو محاصرة «العصاة» واستبدال أنظمة بأخرى، كما حدث ذلك منذ الخمسينات من القرن الماضي في كوبا، وحدث بعد ذلك في العراق وأفغانستان والكوسوفو والبوسنة وغيرها من المناطق. «فللمجموعة الدولية» رأي في كل ما يجري في الكون. ولهذا، فقد «تبين لهذه المجموعة أن الوضعية في هذه المناطق وصلت درجة لا يمكن التسامح معها، وقررت التدخل من أجل وضع حد لما يعتبره الضمير المشترك جريمة»، كما يشير إلى ذلك المؤلف (يتحدث إيكو عن التدخل العسكري في الكوسوفو (قوات الناتو)، وعن حرب الخليج لإخراج القوات العراقية من الكويت (قوات التحالف)).

ولكن هذا «الحد» غامض ومبهم ولا نستطيع تحديد درجاته القصوى والدنيا إلا من باب الاجتهاد، أو من باب ما يمكن أن توحي به المصالح. وبعبارة أخرى، قد لا نعرف دائما متى ينتهي القتل باسم الإنسانية ومتى يبدأ القتل باسم المصالح؟ لذلك، لن يقود «التفكير في الحرب»، في جميع الحالات، إلى تمجيدها أو اعتبارها قدرا لا راد لقضائه، فهي سيئة بالنسبي والمطلق، كما يؤكد ذلك إيكو. فلا رابح في الحرب الحديثة، فهي مضادة للبيئة والإنسان، رغم «ذكائها». فعلى

الإنسانية أن تتخلص من تراثها الدامي لترسي قواعد جديدة من أجل إدارة طاقات العنف داخلها، بما في ذلك إمكانية تحريم الحرب واعتبارها «طابو»، كما اقترح ذلك ألبيرتو مورافيا.

فقد يكون ما وقع في الكوسوفو والبوسنة مسا بالإنسانية، فالناس تحدثوا هناك عن التطهير العرقي والديني والقتل الجماعي وعن الاغتصاب والتنكيل والتهجير، ولكنه لم يكن، في كثير من الأحيان، سوى ذريعة تستعمل من أجل الدفاع عن مناطق نفوذ دول تكيف مصالح العالم وفق ما تشتهيه مصالحها، وتديره وفق ما يستجيب لها ويحميها. فالظاهر أن لكلٍ إنسانيته، و«للمجموعة الدولية» الحق في انتقاء إحداها: قُتل مئات الآلاف من قبيلة التوتسي في مجاهل إفريقيا دون أن تتحرك «المجموعة الدولية» لتضع «حدا لما يعتبره الضمير المشترك جريمة».

ومع ذلك، وسواء صح ما تدعيه هذه «المجموعة الدولية» أم لا، فإن ما يعنينا من السياقات القيمية الذي تحتكم إليها هذه المقالات هو مجموعة من المبادئ التي تعد في تصورنا إرثا مشتركا للبشرية جمعاء. إنها مبادئ تخص الإنسانية باعتبار ذاتها، لا باعتبار صفات من ينتمون إليها. فمن حق كل الناس في مغارب الأرض ومشارقها الاحتكام إلى الديمقراطية والعقلانية والتعدد والعلمانية في تدبير شرطهم الإنساني. بل إن هذه المبادئ ذاتها هي التي يجب اعتمادها من أجل الدفاع عن الخاص والمحلي في القيم والثقافات. فـ«الكوني» ليس كذلك إلا من خلال ما يخصص ويميز ويفصل هذا اللون عن ذاك.

وليس غريبا أن تتبنى إنسانية الحاضر «الاختلاف» كحق، وتستبعد التسامح باعتباره هبة من القادر. فالأول صفة للأقلية المتميزة، أما الثاني فسمة للقوي الغالب.

إن وحدة العلمانية هي غير وحدة الدين، إن العلمانية لا تقصي المختلف باعتباره خارجا عن «الصف» العقدي، بل تستوعبه ضمن ممكنات الوجود الاجتماعي الذي يجب أن يتسع للجميع ضمن ثوابت الإنسانية وحدها. فالوحدة ليست انصهار الواحد في ذاته، بل هي طريقة في ارتباطه مع الآخر، «فالآخر هو من يحددنا» كما يقول إيكو، فبدونه سنصاب بالجنون أو الهوس. لذلك فكل وحدة إنما تقوم على المتعدد في الوجود والمظاهر والاشتغال، «فلا شيء مثير للحزن أكثر من شعور أمة بوحدتها»، بتعبير ليفي شتراوس.

وبعبارة أخرى «إن وجود البعد الأخلاقي مرتبط بظهور الآخر. فالغاية من كل قانون ـ أخلاقي أو حقوقي ـ هي تنظيم العلاقات بين الأفراد، بما فيها العلاقة مع آخر هو من يفرض هذا القانون». فقد تختلف أشكال القيم لكن مضامينها ستظل واحدة. إن الخير خير والشر شر في مشارق الأرض ومغاربها.

لذلك، لا يجب أن تثنينا بشاعة «عولمة الحرب» عن تبني منجزاتها في مجالات الإنساني، ومنها الحقوق والديمقراطية ورفض القتل باسم الدين والعرق والهوية الثقافية. فلا شيء يمنعنا من استنبات هذه المبادئ في تربتنا الثقافية وفق خصوصياتنا كما تأتي من اللغة والتاريخ والثقافة، لا كما يمكن

إسقاطها من خارجها. فلا «خصوصية» في العدل والمساواة والحرية والديمقراطية إلا ما يتعلق»بخصوصية» ما يمكن أن يخدم بأفضل الطرق مصالح الناس وكرامتهم.

إن مكمن الخصوصية واقع متحرك لا ذهن جامد يكيف الآتي وفق القوالب القديمة. فنحن جزء من الإنسانية، ولا يمكن أن نفكر خارج المعايير التي بلورتها في كل الميادين على مدى عشرات القرون. فعبقريتنا وفننا وخيرنا وشرنا وصدقنا كلها مفاهيم دالة على مضامينها ضمن ثوابت الإنسانية لا خارجها. وهذا ما يجعلنا نهتز طربا ونحن نستمتع بموسيقى لا نعرف كلماتها.

وهذا يعني عدم الخلط بين الحضارة التي أنتجت هذه القيم وبين ما يرتكبه المنتمون إليها من جرائم خارج حدودهم. فلن يقود هذا الخلط في نهاية الأمر سوى إلى تبرير وجود طغاة يحكمون شعوبهم بعبث سلطوي لا نظير له في التاريخ. فباسم الخصوصية الدينية والتميز الثقافي، يبررون الاستبداد والتخلف والانكفاء على الذات خارج مجريات تاريخ يُصنع في غيابنا، وخارج قدرتنا على مجاراة إيقاعه.

وتلك هي المبادئ التي يجب، في عرف المؤلف، أن يتحمل عبئها المثقف قبل السياسي. فللمثقف اختيارات لا يحكمها التقدير الظرفي للأشياء والكائنات، ولا يستند إلى حكم مسبق لبلورة مواقفه والدفاع عنها. فإذا كان الفعل الإنساني «عرضة للالتباسات والغموض والتأويل، فإن وظيفة المثقف

تكمن في الكشف عن هذه الالتباسات بالذات. إن واجب المثقف هو في المقام الأول انتقاد رفاقه»: يقدم لنا نعوم تشومسكي، العالم اللساني الشهير، حالة مثقف نادر الوجود في التاريخ. لقد وقف في وجه الشطط الأمريكي بكل قواه، وفضح أساليب حكومته في التدخل في شؤون الأفراد والجماعات والدول. ولم تمنعه يهوديته من الوقوف ضد إسرائيل دفاعا عن حق الشعب الفلسطيني في استقلاله وبناء دولته.

وبعبارة أخرى، إن المثقف فاعل أخلاقي لا يتقيد بحالات انتماء زائل لهذا الموقف أو ذاك، ولا بحالات التصنيف «العفوي» ضمن أصل «عرقي» هو بالضرورة من باب الوهم المضلل، أو من باب التصنيف الثقافي المسبق الذي لا يمكن، رغم وجوده الفعلي، أن يحل محل كل القيم النبيلة التي أفرزتها الممارسة الإنسانية الممتدة عميقا في التاريخ. لقد مات سقراط دفاعا عن حق الإنسان في التفكير الحر، ورفض الفرار من سجنه لكي لا يشمت به أعداؤه أو يشككون في مبادئه.

وعلى هذا الأساس، فإن ما يفصل بين السياسي والمثقف هو الفاصل بين «الولاء» وبين «الحقيقة»، فالولاء عند إيكو مقولة أخلاقية، أما الحقيقة فمن طبيعة نظرية. الأولى للسياسي(فهو يتحرك ضمن تراتبية السلطة أو تراتبية الحزب) أما الثانية فمن اختصاص المثقف (فهو لا يهتم سوى بالقيم التي تحمي الإنسان من الظلم والانتقاص من حريته وكرامته). ولا سبيل إلى الخلط بين ما يأتي من الولاء، وما تقود إليه الحقيقة.

إنه الفاصل بين إكراهات السياسة واختيارات الثقافة.

وهذا الفصل بين المقولتين هو الذي دفع الكثير من المثقفين العرب إلى التردد في اتخاذ موقف من الحرب على العراق. لقد أدانوا غزو صدام للكويت، فهو أمر عبثي، ولكنهم لم يباركوا قتل الشعب العراقي، لأنه أمر مأساوي. لقد كان الولاء يدفعهم إلى الدفاع عن العراق، دون التضحية بمصالح الشعب الكويتي، وكانت الحقيقة تدفعهم إلى ضرورة إسقاط نظام فاشي دون مباركة الغزو الأمريكي.

استنادا إلى كل ما قلناه، فإن هذا الكتاب يقدم حقا دروسا في الأخلاق. وقد لا نتفق مع كل ما ورد فيه، وهذا أمر مؤكد، فالتلقي النقدي يمنعنا من ذلك، ولكننا لا يمكن أن ننكر أن الكتاب يعلمنا كيف نفكر وكيف ندير اختلافاتنا مع الآخر ضمن ضوابط الإنسانية لا خارجها أو ضدا عليها. فلا شيء يبرر قتل آلاف الضحايا الأبرياء « انتقاما من أمريكا الظالمة»، كما حدث ذلك في نيويورك ومدريد مع بداية هذا القرن.

وفي هذا المجال، يقدم لنا إيكو سبلا في كيفية التعاطي مع الذات ومع الآخر. إنه يتحدث عن الدين ولا يخفي عدم إيمانه بحلوله، ولكنه يبجله في شخص كل المتدينين الذين «تغاضوا» عن انتماءات الآخرين وقدموا لهم في ليالي الشتاء الباردة غطاء ووجبة ساخنة: فعل ذلك الأب بيير في فرنسا لمدة نصف قرن، وفعلته الأم تيريزا في مجاهل الهند لسنوات طويلة وهي تضمد جراح المهمشين والمنبوذين. ولكنه يمجد العلمانيين

أيضا، أولئك الذين ماتوا دفاعا عن حق الإنسان في العيش الكريم، ولكنه لا يخفي ماضيه الروحي، أو ما يسميه «دينِيَّتي» العلمانية، فلا يخلو قلب الفرد من مقدس ما.

إن الكتاب لا يقدم دروسا من باب «يجب. . .»، بل يستحضر تجارب التاريخ ويتأملها، إنه لا يمجد أخلاق الدين، ولا يحط منها، ولكنه يجعل الفرد مسؤولا عن سلوكه. «فهناك أشخاص لا يؤمنون ولكنهم حريصون على إعطاء معنى لمماتهم، وهناك مؤمنون مستعدون لانتزاع قلب طفل صغير لكي يظلوا هم أحياء. إن قوة الأخلاق تقاس بسلوك القديسين، لا بما يفعله الحمقى الذين هم، في نهاية الأمر، من مخلوقات الله».

أتمنى أن نكون بترجمتنا لهذا النص الرائع قد قدمنا ما يمكن أن يساعدنا في فهم أفضل لأنفسنا وللآخر، الآخر المختلف، لا الآخر الذي يغتصب الأرض والأوطان. وفي الختام أتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ أحمد الفوحي، فله فضل كبير على هذه الترجمة.

ـ **ملاحظة**: الهوامش التي لا تشير إلى المترجم هي من عند المترجم الفرنسي، أما تلك التي تشير إلى المترجم، فهي من إضافات المترجم إلى العربية.

سعيد بنگراد



مقدمـــة

تتميز المقالات التي يضمها هذا الكتاب بخاصيتين: أولاهما أنها مرتبطة بمناسبات، فقد صيغت على شكل محاضرات أو تدخلات أملتها راهنية الأحداث. وثانيهما ارتباطها، على الرغم من تنوع ثيماتها، بقضايا الأخلاق، أي أنها تتحدث عما يحمد فعله، وعما يجب ألا يُفعل وما لا يجب القيام به أبدا.

تقتضي طبيعة هذه المقالات أن نحدد بالتدقيق الظروف التي كتبت فيها، فبدون ذلك لن تفهم كما يجب.

لقد نشر الجزء الأول من المقال الذي يحمل عنوان «التفكير في الحرب» في جريدة larevista dei libre في أبريل 1991، في أوج حرب الخليج. أما الجزء الثاني فقد نشر في جريدة la republica في 24 أبريل 1999، عندما اندلعت الحرب في كوسوفو.

أما المقال الثاني الذي يحمل عنوان « الفاشية الأبدية « فقد

ألقيته في شكل محاضرة بالإنجليزية في 25 أبريل 1995 في ندوة نظمتها شعبتا الفرنسية والإيطالية في جامعة كولومبيا (نيويورك) احتفالا بالذكرى الخمسين لتحرير أوروبا. ونشر تحت عنوان: eternel fascisme في the new york review of books (22 يونيو 1995). وترجم إلى الإيطالية ونشر في larevista dei libre في عدد يوليو / غشت 1995 تحت عنوان «totalitarismo fuzzy et Ur-fachismo»، ونشر بعد ذلك في magazine littéraire لشهر أبريل 1996 تحت عنوان Totalitarisme fuzz et fascisme eternel (صيغة قريبة جدا من الصيغة المنشورة هنا عدا بعض التعديلات الشكلية). ولكن يجب ألا ننسى أن النص كان موجها إلى جمهور مكون من الطلبة، وألقي في الفترة التي كانت فيها أمريكا مازالت تحت تأثير الهزة التي أحدثتها العملية الإرهابية التي وقعت في أوكلاهوما، لقد اكتشفت أمريكا حينها أن فوق ترابها تتحرك منظمات إرهابية تنتمي إلى اليمين المتطرف (ولم تكن سرية على الإطلاق). ولثيمة «مناهضة الفاشية» في هذا السياق إيحاءات خاصة، والدراسة التاريخية تهدف إلى تشجيع دراسة قضايا تتعلق بالوضع الراهن في بلدان مختلفة - وترجمت المحاضرة، بعد ذلك، إلى لغات مختلفة ونشرتها جرائد ومجلات متعددة. أضف إلى ذلك، أن خطابي كان موجها إلى شباب أمريكي وهو ما يفسر وجود معلومات وتدقيقات تكاد تكون مدرسية في نظر القارئ الإيطالي، وقد حفل المقال ببعض الاستشهادات من خطب روزفلت وعلى

تلميحات إلى المناهضة الأمريكية للفاشية والتأكيد على اللقاء بين الأوروبيين والأمريكيين في حرب التحرير.

أما «حول الصحافة» فهو في الأصل تقرير قدم في يناير 1995 ضمن سلسلة من اللقاءات التي نظمها مجلس الشيوخ الإيطالي (تحت رئاسة كارلو سكوغنامغليو)، أمام أعضاء المجلس ومديري اليوميات الكبرى في إيطاليا، وفتحت على إثره نقاشات واسعة.

أما مقال «الأنا والآخر» فيشكل جوابا من ضمن أجوبة أخرى عن أسئلة الكاردينال مارتيني ضمن رسائل متبادلة بيننا بلغ عددها أربعا نظمتها ونشرتها مجلة liberal. وجمعت هذه الرسائل بعد ذلك في كتيب صغير تحت عنوان in che cosa crede chi non crede? roma? atlantide editoriale, 1996 (وهناك ترجمة فرنسية للرسائل نشرت تحت عنوان croire en quoi? paris, rivage Poche/ Petite Bibliotheque 1998).

أما المقال الأخير «الهجرة والنزوح واللامسموح به» فهو نتاج عملية تجميع. فالفقرة الأولى تستعيد الجزء الأول من محاضرة ألقيتها في 23 يونيو 1997 في افتتاح مؤتمر نظمته مدينة فلانسيا حول آفاق الألفية الثالثة. أما الثاني فيعيد صياغة مقدمة المناظرة الدولية التي نظمتها الأكاديمية الكونية للثقافات في باريس يومي 26 و27 مارس 1997. أما الثالثة فقد سبق أن نشرتها تحت عنوان «لا تسألونا لمن تدق الأجراس» في la republica بمناسبة صدور الحكم في قضية بريبكي.



التفكيـر في الحـرب



قررت أن أجمع هنا مقالين كتبا عن حربين مختلفتين. فعندما طُلب مني أن أكتب المقال الثاني أحسست بنوع من الحرج. وهو حرج لا يعفيني من القول إنني بين 1991 و1999 درست التدخل الذي أشير إليه في بداية النص الثاني، وكنت من الذين باركوا التدخل العسكري في الكوسوفو. ومع ذلك، وفي هذا المقام أيضا، فإن الحرب لا تخلو من عيوب تكون عادة غير متوقعة. وهكذا انتبهت للمرة الثانية أنه كان علي أن أكتب المقال ذاته كما حدث منذ 9 سنوات مع تغيير أسماء الأماكن فقط. زد على ذلك أن النصين معا ينتهيان برجاء أو توقع حدوث حل دبلوماسي يمكن التوصل إليه نتيجة اعتبارات لا تشكل فعالية الحرب فيها حلا حاسما.

وعندما أعيد النظر في المقالين في صيغة واحدة، فإنني أتيقن من أنهما يكرران بعضهما البعض. ولذلك لا معنى أن أعيد نشرهما مجتمعين.

وعلى الرغم من ذلك، فإن للأمر معنى، وهو أنني لست مسؤولا عن التكرار، الآخرون (أو الأشياء) هم من يتحمل تلك المسؤولية. وكان علي أن أؤكد هذا التكرار وأكشف عنه.

يتحدث هذا المقال عن الحرب في عموميتها، باعتبارها حربا «ساخنة» تخوضها بالإجماع كل الأمم وبالشكل الذي تتخذه كل الحروب في العالم المعاصر. وقد تكون قوات التحالف، في اللحظة التي كنت أقدم فيها هذا المقال إلى هيئة التحرير، دخلت العاصمة الكويت ـ إلا إذا حدثت معجزة ـ وسيُقرأ عندما يتأكد الجميع أن الحرب كانت لها نتيجة مرضية، لأنها خيضت وفق الأهداف المصرح بها. وفي هذه الحالة، فإن الحديث عن استحالة الحرب ولا جدواها سينظر إليه باعتباره يحيل على تناقضات، ولن يكون في مقدور أحد الحكم سلبا على عمل مكننا من الوصول إلى النتائج المرجوة. ومع ذلك، فإن الملاحظات الآتية يجب أخذها بعين الاعتبار كيفما كانت نتيجة هذه الحرب. بل إنها كذلك إذا وصلنا إلى نتائج «مشجعة» لأن هذا بالضبط هو ما سيقنع البعض أن الحرب مازالت في بعض الحالات إمكانا معقولا. في حين علينا أن نفند هذا الادعاء.

منذ بداية الحرب سمعنا وقرأنا نداءات مختلفة تؤاخذ على المثقفين حيادهم تجاه هذه المأساة. وكما فعل أغلبية أصحاب القول، المثقفون، والذين يكتبون أو يتكلمون (بالمعنى النقابي للكلمة)، تساءلنا نحن أيضا عن هوية الذين ينتمون إلى الأقلية الصامتة والذين يطلب منهم اتخاذ موقف. ويتعلق الأمر بطبيعة الحال بأولئك الذين لم يتخذوا الموقف «الصحيح» وساندوا هذا الطرف أو ذاك. والدليل على ذلك أنه يوما بعد يوم وكلما

اتخذ أحدهم موقفا مخالفا لانتظارات الآخر، ينعت بالمثقف الخائن، أو الفاشي المناصر للعرب.

إن المواجهة الإعلامية بين مكونات الأغلبية الناطقة كانت تشير إلى أن كل طرف يستحق اتهامات الآخر. فمناصرو الحرب وضرورتها نُعتوا بالمتدخلين الذين مازالوا ينتمون إلى المدرسة القديمة، أما مناصرو الحل السلمي الذين لم يكونوا في الغالب يستطيعون التخلص من شعارات العشريات الأخيرة وطقوسها، فكانوا يُتهمون بأنهم يودون استسلام طرف ثمنا لانتصار الآخر. كان على الفئة الثانية، أن تبدأ، كشكل من أشكال الطقوس السحرية، بالحديث عن فظاعة الحرب، أما الثانية فكانت تستحضر فظاعة صدام حسين.

لقد كنا في الحالتين معا أمام سجال بين مثقفين محترفين، لا أمام ممارسة لدور المثقف. فمن المعروف أن المثقفين، باعتبارهم فئة، يحيلون على شيء غامض، أما وظيفتهم فواضحة. إنها تكمن في الإمساك النقدي بما نعتقد أنه مقاربة صحيحة لتصور خاص للحقيقة، وهي وظيفة يمكن أن يقوم بها أي كان حتى ذلك الهامشي الذي يتأمل وضعه ويعبر عن ذلك بهذا الشكل أو ذاك، وهو ما قد لا يقوم به كاتب تعامل مع الأحداث بشكل انفعالي دون نفس تحليلي يذكر.

ولهذا السبب، على المثقف ألا يكون بوقا للثورة كما يقول فيتوريني. لا لأنه يتهرب من الاختيار (وهو اختيار يمكن أن يقوم به باعتباره فردا) بل لأن لحظة الفعل، إذا كانت تقتضي

التدقيقات والالتباسات (وهي الوظيفة الرئيسية لمركز القرار في كل مؤسسة)، فإن وظيفة المثقف تكمن في الكشف عن الالتباسات. إن الواجب الأول للمثقف هو في المقام الأول انتقاد رفاقه (أن «تفكر» معناه أن تقوم بدور جيميني كريكيت[1]، صرار الليل وهو يتحدث عن بينوكيو). قد يحدث أن يختار المثقف الصمت خوفا من خيانة أهله، مقدرا أن هؤلاء، وبغض النظر عن أخطائهم، يعدون مصدرا للخير. إن الأمر يتعلق باختيار مأساوي وأمثلته كثيرة في التاريخ. إنه اعتقاد قد يقود المرء إلى الذهاب إلى مواجهة الموت والبحث عنها في صراع لا يؤمن به، فقد يستحيل، في نظره، استبدال الولاء بالحقيقة. ولكن الولاء مقولة أخلاقية أما الحقيقة فمقولة نظرية.

وهذا لا يعني أن وظيفة المثقف مفصولة عن الأخلاق. إن ممارستها اختيار أخلاقي، تماما كخيار الجراح الذي يقرر نزع اللحم من أجل إنقاذ حياة. ولكن عليه ألا يتأثر في اللحظة التي يقرر فيها نزع اللحم، حتى وإن قرر تضميد الجرح لأنه لا فائدة من متابعة العملية. إن وظيفة المثقف قد تقود إلى نتائج انفعالية لا تحتمل، ذلك أننا قد نضطر أحيانا إلى حل بعض المشاكل من خلال تبيين ألا حل لها. إنه اختيار أخلاقي أن يعبر المرء عن خلاصاته أو السكوت (راجيا أن تكون هذه الخلاصات خاطئة). وتلك هي مأساة ذاك الذي آمن، ولو للحظة واحدة، بواجب» موظفي الإنسانية».

---

(1) شخصيات تخييلية من شخصيات رسوم والت ديسناي (المترجم)

لقد تهكم الناس كثيرا من موقف البابا، حتى بين الكاثوليكيين أنفسهم. فقد أكد أن الحرب ليست ضرورية وصلى من أجل السلام واقترح حلولا بديلة كانت تبدو هزيلة قياسا إلى خطورة الأحداث. وقد قال الأصدقاء والأعداء، من أجل تبرير موقفه، بأن الرجل لم يقم سوى بوظيفته، فلم يكن بإمكانه أن يقول شيئا آخر. وهذا صحيح. لقد قام البابا (انطلاقا من تصوره للحقيقة) بممارسة وظيفة المثقف، وقال علينا ألا نقوم بالحرب. لقد كان على البابا أن يقول إذا كنا نرغب في تطبيق تعاليم الإنجيل إلى النهاية، علينا أن نبسط الخد الآخر. ولكن ماذا عسى المرء أن يفعل إذا كان مهددا بالقتل؟ «عليك أن تتدبر أمرك»، سيرد البابا، «هذا شأنك» ـ ولن يتم استحضار ما يتعلق بالقضايا الدينية الخاصة بالدفاع الشرعي عن النفس بعد ذلك إلا من أجل تعويض الهشاشة الإنسانية القائلة بأنه ليس على أحد ممارسة بطولة الفضيلة. إن الموقف رائع جدا إذا كان سيضيف (وعندما يضيف) شيئا آخر يمكن التعامل معه باعتباره إشارة عملية، حينها سيتخلى عن وظيفته كمثقف ويقوم باختيارات سياسية (وهذا شأنه).

وإذا كان الأمر كذلك، علينا الاعتراف بأن المثقفين، منذ خمس وأربعين سنة، لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الحرب. لقد تكلموا عن الحرب، وفعلوا ذلك بانخراط كلي لدرجة أنهم غيروا من نظرة العالم للحرب. فلم يسبق أن أحس الناس بفظاعة الحرب وغموضها مثل هذه اللحظة. وباستثناء بعض المتعصبين، لم يكن هناك من يمتلك موقفا حاسما، إما الأسود

وإما الأبيض. فأن تندلع الحرب مع ذلك، فإن هذا يثبت أن خطاب المثقفين لم يحالفه النجاح التام، لقد فشل ولم يتوفر له الفضاء التاريخي الكافي للتحقق. ولكن هذا أمر عارض. أما الآن، فإننا ننظر إلى الحرب نظرة مختلفة عن تلك التي كانت سائدة في بداية القرن (القرن العشرين)، وإذا كان هناك من يتحدث اليوم عن جمال الحرب باعتبارها دواء وحيدا للعالم، فإنه لن يلج تاريخ الأدب، بل مثواه تاريخ الأمراض العصابية. لقد عرفت الحرب ما عرفته جرائم الشرف أو القصاص: لا لأننا لم نعد نمارس ذلك، بل لأن الناس يعتبرون الحرب شرا بينما كانوا ينظرون إليها قديما باعتبارها عملا جيدا.

ولكن الأمر يتعلق هنا أيضا بردود أفعال أخلاقية أو انفعالية (وقد تقبل الأخلاق أحيانا، باستثناءات خاصة بالقتل المحظور، كما تقبل الحساسية الجماعية، تضحيات قد تجني من ورائها خيرا ساميا). وبالمقابل هناك طريقة أكثر جذرية في التفكير في الحرب من خلال مفاهيم شكلية، ما يتعلق بالانسجام الداخلي، من خلال التفكير في شروط حدوثها، وباختصار لا يمكننا القيام بالحرب لأن وجود مجتمع المعلومات الآنية والمواصلات السريعة والهجرة الدائمة عبر كل القارات، يضاف إليها الطبيعة التكنولوجية للحرب، قد جعل الحرب مستحيلة ولا عقلانية. إن الحرب تتناقض مع أسباب قيامها ذاتها.

ما طبيعة الأهداف التي قامت من أجلها الحرب عبر التاريخ؟ لقد كان الناس يقاتلون من أجل هزم عدوهم، من

أجل سلبه ونهبه، بحيث إن نوايانا ـ التصرف بطريقة معينة من أجل الحصول على غايات بعينها ـ يجب أن تنفذ تكتيكيا واستراتيجيا لتسفيه نوايا العدو. ومن أجل هذه الغايات يجب استنفار كل قوانا. وتتم اللعبة، في نهاية الأمر، بيننا وبين الخصم. إن حياد الآخرين، مادامت حربنا لا تزعجهم (إن لم يستفيدوا منها بهذا الشكل أو ذاك) كان يعد شرطا ضروريا لتحركاتنا. وكل الحروب تسير وفق هذا المنطق بما فيها «الحرب الكلية» التي تحدث عنها كلاوسفيتش[2].

ولم تظهر مقولة الحرب العالمية إلا في عصرنا هذا، وهي حرب شملت حتى المجتمعات التي لا تاريخ لها، كما هو شأن القبائل البولينيزية. ومع اكتشاف الطاقة الذرية والتلفزة والمواصلات الجوية، ومع ميلاد الأشكال المتنوعة للرأسمالية المتعددة الجنسيات، بدأت تلوح بعض الشروط التي تجنبنا الحرب.

1 ـ لقد أقنعت الأسلحة النووية العالم أن صراعا نوويا لن يكون فيه أي غالب وسيكون فيه مغلوب واحد هو كوكبنا الأرضي، حتى وإن اعتقد البعض في مرحلة أولى أن الحرب النووية مضادة للبيئة، فقد تأكدوا في النهاية أن كل حرب مضادة للبيئة هي ذرية، وكل حرب هي في نهاية الأمر مضادة

(2) Karl von Clausewitz ضابط ومنظر عسكري بروسي (1780 ـ 1830) صاحب كتاب هام في التنظير للحرب: «في الحرب» (المترجم)

للبيئة. إن الذي يلقي بقنبلة ذرية (أو يلوث البحر) يعلن الحرب على المحايدين وعلى الأرض أيضا.

2 ـ إن الحرب ليست بين جبهتين منفصلتين. إن فضيحة الصحفيين الأمريكيين في بغداد شبيهة أو هي أكثر من ذلك بفضيحة المسلمين المساندين لصدام حسين المقيمين في بلدان التحالف المناهض له. لقد كان المشتبه فيهم، فيما سبق، يوضعون في السجون (أو ينكل بهم) وإذا تحدث مواطن، وهو في أرض الأعداء، عن مبررات الخصم سيشنق في نهاية المعركة. أما اليوم فالحرب لا يمكن أن تكون على الجبهة وذلك نظرا لطبيعة الرأسمالية المتعددة الجنسيات. وليس عرضا أن يكون العراق قد حصل على أسلحته من الصناعات الرأسمالية. إن الأمر يتعلق بمنطق الرأسمالية في حالة نضجها حيث تخلصت من رقابة الدولة. فعندما يتضح للحكومة الأمريكية أن الشبكات التلفزية تقوم بالدعاية للعدو، فإنها تشعر بأنها عرضة لمؤامرة يقوم بها المثقفون المساندون للشيوعية. وبموازاة مع ذلك، فإن الشبكات التلفزية تتوهم أنها تجسد الوجه البطولي لهامفري بوغارت[3] وهو يُسمع رئيس العصابة أصوات آلات الطباعة قائلا: «إنها الصحافة يا سيدي، وليس بإمكانك إيقافها». ولكن منطق الصناعة الإعلامية يكمن في بيع الخبر ـ ويستحسن أن يكون هذا الخبر مأساويا. لا لأن الصحافة ترفض أن تكون بوقا للحرب، بل هي فقط بيانو

(3) Humphrey Bogart ممثل أمريكي شهير 1899 ـ 1957. (المترجم)

ميكانيكي يقوم بتنفيذ أنغام موسيقية مدونة على لوحة، لدرجة أن الكل يجد نفسه الآن في الحرب مع العدو في مؤخرته، وهو الأمر الذي ما كان لأي ميلوزيفيتش[4] أن يقبله.

3 ـ وقد تستطيع جهة ما قمع الصحافة، إلا أن التقنيات التكنولوجية للتواصل ستمكن من ضخ عدد هائل من المعلومات ليس بمقدور أحد إيقافه، بما في ذلك الدكتاتوريون. ذلك أنها تستعمل بنيات تحتية تكنولوجية أولية هم ذاتهم لا يمكن أن يتخلوا عنها. إن هذا الدفق الهائل من المعلومات يقوم بالدور الذي كانت تقوم به المصالح السرية في الحروب التقليدية: إنه يشل كل حركة مفاجأة، ذلك أن الحرب التي لا تعتمد عنصر المفاجأة حرب مستحيلة. إن الحرب تنتج تواطؤات شاملة مع العدو. إلا أن الحرب تقوم بأكثر من ذلك: إنها تعطي الخصم الكلمة باستمرار (والحال أن الغاية من كل سياسة حربية هي حرمان الخصم من القيام بدعاية ما)، وتدفع المواطنين إلى التشكيك في حكوماتهم (والحال أن كلاوسفيتش يذكر أن شرط الانتصار هو التماسك الأخلاقي لكل المقاتلين). إن كل الحروب الماضية كانت تقوم على مبدأ يقول إن المواطنين الذين يعتقدون بأن الحرب عادلة كانوا يحترقون شوقا إلى تدمير العدو. أما الآن، فالأخبار تزعزع ثقة المواطنين، بل أكثر من ذلك، إنها تشككهم في قناعاتهم في إمكانية موت

---

(4) رئيس صربيا الذي حوكم بتهمة ارتكاب جرائم حرب وتوفي في سجنه في هولندا. (المترجم)

العدو. لم يعد الأمر يتعلق بأحداث بعيدة وغامضة بل ببداهة بصرية لا يمكن تحملها.

4 ـ وهذه أمور مرتبطة كلها بشيء آخر. إن السلطة ليست منسجمة بالمطلق وليست بقطب واحد، كما يقول فوكو: إنها منتشرة في كل مكان ومجزأة ومكونة من تكتلات تدمر كل إجماع. إن الحرب لا تضع فريقين وجها لوجه، إنها تضع سلطات متعددة في مواجهة مفتوحة. وفي هذه اللعبة قد تكون الغلبة للبعض على حساب البعض الآخر. فإذا كانت الحروب القديمة تغني تجار الأسلحة ـ وهذا الربح يتغاضى عن توقف التبادلات التجارية ـ فإن الحروب الجديدة إذا كانت تغني تجار الأسلحة، فإنها تخلق أزمة (على المستوى العالمي) في مجال صناعة المواصلات الجوية والترفيه والسياحة ووسائل الإعلام نفسها (التي ستخسر سوق الإشهار)، وستؤثر عامة على كل الصناعات الكمالية ـ ما يشكل أساس النظام، من العقار إلى السيارات. فعندما أُعلن عن الحرب عرفت البورصة قفزة نوعية، وشهرا بعد ذلك، عندما بدأ الحديث عن سلم محتمل، عرفت أيضا قفزة إلى الأمام. لا حرج في الحالة الأولى، ولا فضيلة في الحالة الثانية. إن البورصة تسجل تقلبات لعبة السلط. فأثناء الحرب تدخل بعض السلط الاقتصادية في صراع مع بعضها البعض، ومنطق صراعها يتجاوز منطق القوى الوطنية. فإذا كانت صناعة استهلاك الدولة (كالأسلحة) في حاجة إلى التوتر، فإن صناعة الاستهلاك الفردي في حاجة إلى السعادة. إن الصراع يتم من خلال مفاهيم اقتصادية.

5 ـ لكل هذه الأسباب وأخرى، لا تشبه الحرب نظاما ذكيا متكونا من سلاسل (sériel)، كما كانت عليه قديما، بل تشبه نظاما ذكيا من طبيعة التوازي (parallèle). فالنظام الذكي المتسلسل، الذي يُستعمل مثلا من أجل تصميم آلات قادرة على الترجمة أو الحصول على استنتاجات من بعض المعطيات، مرتبط بالمعلومات التي يمدها به المبرمج بحيث يستطيع اتخاذ قرارات، استنادا إلى عدد محدود من القواعد، كل قرار مرتبط بتقدير خاص بالقرار السابق، وهو قرار قائم على سلسلة من الانفصالات الثنائية. لقد كانت الاستراتيجيات الحربية القديمة شبيهة بهذا النظام: إذا حشد العدو جيوشه في اتجاه الشرق، علي إذن أن أستنتج أنه يريد الزحف جنوبا، وفي هذه الحالة، واستنادا إلى المنطق نفسه، سأوجه جيشي في اتجاه الشمال الشرقي، لكي أقطع عليه الطريق بشكل مباغت. لقد كانت قواعد العدو هي قواعدنا أيضا، وكل منا كان بإمكانه أن يتخذ قرارا كما هو الشأن في لعبة الشطرنج.

وعلى النقيض من ذلك، فإن النظام القائم على التوازي يمنح كل خلية في الشبكة القدرة على الانتظام داخل تشاكل نهائي وفق توزيع يستند إلى حاجة لا يستطيع المبرمج تقريرها أو توقعها بشكل مسبق، ذلك أن الشبكة تجد نفسها أمام قواعد لم تحصل عليها بشكل سابق. إنها تقوم بتغيير ذاتي لكي تجد الحل، ولا يعرف الفرق بين القواعد والمعطيات. صحيح، بإمكاننا أن نتحكم في نظام من هذا النوع (الذي يطلق عليه

«الترابطات الجديدة» أو «شبكة من النورونات) وذلك من خلال مجابهة الجواب المعطى عن السؤال المنتظر، ومن خلال إعادة تعديل الأثقال محل تجارب متتالية. ولكن هذا يشترط: أ ـ أن يتوفر المهندس على الوقت الكافي، ب ـ لن يكون هناك مهندسان اثنان في حالة تنافس يقومان بإعادة توزيع الأثقال بطريقة متناقضة باستمرار، ج ـ وأن تكون كل خلية تفكر، من خلال الشبكة، باعتبارها خلية لا على طريقة المهندسين، أي أنها لا تتخذ قرارات مستقاة من استنتاجات خاصة بسلوك المهندسين، وخاصة ألا تكون لها مصلحة غريبة عن الشبكة ذاتها. إن كل خلية في النظام التجزيئي للسلطة تتصرف وفق مصالح خاصة ليست هي مصالح المهندس ولا علاقة لها بالاتجاهات المالكة لدينامية ذاتية للشبكة. وتبعا لذلك إذا كانت الحرب، استعاريا، نظاما ترابطيا، فإنها ستتطور وتنتظم في استقلال عن إرادة الفريقين المتحاربين. ومن خلال نشر نمط اشتغال شبكة نورونية، يستعمل أرنو بونزياس استعارة حربية، (Ideas and information, New york: norton 1989, chap 4-: «نعرف أن النورون يصبح فعالا من الناحية الكهربائية (يطلق عليه «دوندريت dendrites») إذا خضع لإثارة من خلال الحبال الخاصة بالإدخال وهي حبال بالغة الدقة (التي يطلق عليها الخلية العصبية). ففي اللحظة التي يتم فيها «الإطلاق»، يبعث النورون إشارات كهربائية على امتداد سلسلة الحبال المخرجة (التي يطلق عليها أكسون axons)... وبما أن» إطلاق» كل

نورون مرتبط بنشاط نورونات أخرى، فإنه لا وجود لأية طريقة بسيطة لتحديد ما سيقع ولا متى (. . .) وذلك حسب الحالة الخاصة للترابطات synaptique، فكل توهيم لشبكة متكونة من 100 نورون تحدد في مجموعها حالات ممكنة للتوازن (وذلك استنادا إلى مجموعة من الإمكانات المطلقة المتكونة من مائة مليار مليار مليار أي 10 في 30)».

إذا كانت الحرب نظاما ترابطيا جديدا، فإنها لم تعد ظاهرة، حيث لا قيمة لحساب وقصدية المتحاربين. فهذه الحرب تتوزع، من خلال تضعيف السلطات الموجودة، وفق انتظامات من الأثقال غير المتوقعة. وبالتالي من الممكن أن تنتهي ليتلاءم الانتظام النهائي مع طرف من أطراف الحرب. ولكن الطرفين سيخسرانها، مبدئيا، لأن الحرب تتحدى كل حساب تقريري. وفي ارتباط مع استعارتنا، سيؤدي النشاط الجنوني للفاعلين من أجل التحكم في الشبكة التي تتلقى دفعات متناقضة، إلى انفجارها. إن الهدف المحتمل لكل حرب هو الفشل الذريع. لقد كانت الحرب القديمة عبارة عن لعبة شطرنج حيث يحاول كل لاعب التهام أكبر عدد من القطع من رصيد خصمه، ولكن أيضا في الدفع به إلى الفشل الكلي (من خلال رصد طريقته في اتباع قواعد اللعب). وبالمقابل، فإن الحرب الحديثة هي مباراة في لعبة الشطرنج حيث يلتهم اللاعبان (من خلال الاشتغال بالشبكة نفسها) قطعة واحدة ومن اللون نفسه (اللعب ليس لا أبيض ولا أسود، إنه من لون واحد). إن الحرب هي لعبة تدمير ذاتي.

ومن جهة ثانية، فالقول إن صراعا قاد إلى ربح ما لفائدة جهة ما وفي لحظة ما، معناه أننا نماهي بين حالة الربح في «لحظة ما» مع حالة الربح النهائي. ولكن كان من الممكن أن تكون هناك لحظة نهائية لو أن الحرب كانت وما تزال كما يقول كلاوسفيتش، استمرارا للسياسة بوسائل أخرى (حيث إن الحرب تنتهي عندما نصل إلى حالة توازن تعود بنا إلى السياسة). ولكن الأمر في عصرنا تغير، فالسياسة التي تعقب الحرب هي التي ستكون دائما استمرارا (من خلال كل الوسائل) للمقدمات التي وضعتها الحرب. فمهما كان مصير الحرب، فإنها، من خلال كونها قادت إلى إعادة تنظيم شامل للقوى التي لا يمكن أن تتطابق كلية مع إرادة المتحاربين، من خلال لا استقرار درامي سياسي واقتصادي ونفسي بالنسبة للعشريات المقبلة، ولن تنتج سوى «سياسة حربوية».

وبالإضافة إلى ذلك، هل حدث أن تمت الأمور فعلا بطريقة مغايرة؟ هل حُرم على الناس أن يشككوا في آراء كلاوسفيتش؟ إن الهستغرافيا تعيد قراءة واتيرلو[5] وتعتبرها اصطداما بين عقليتين (فهذه الحرب كانت لها نتيجة)، ولكن ستاندال عرف كيف يقرؤها من خلال حدود سببية. إن الاعتقاد في أن الحروب التقليدية تقود إلى نتائج معقولة ـ توازن نهائي ـ

(5) معركة وتيرلو من المعارك الشهيرة في التاريخ وقد دارت رحاها يوم 18 يونيو 1815 بضواحي بروكسيل في بلجيكا وتجابه فيها الجيش الفرنسي بقيادة نابليون مع مجموعة من الجيوش الأوروبية (ست دول) وانتهت باندحار الجيش الفرنسي. ولقد كانت هذه المعركة إيذانا بسقوط نابليون الأول. (المترجم)

يجد مصدره في حكم مسبق ذي نفس هيجيلي، فالتاريخ وفقه يمتلك توجها وهو نتاج لتوسط يضع الأطروحة في مواجهة نقيضها. فلا وجود لدليل علمي(ولا منطقي) يقول بأن التحكم في البحر الأبيض المتوسط بعد الحرب البونية[6]، أو في أوروبا بعد الحروب النابولية، يجب رده إلى توازن ما. بل يمكن أن نرده إلى إخلال بهذا التوازن لم يكن ليحدث لو لم تكن هناك حرب. فأن تكون الإنسانية لعشرات الآلاف من السنين قد مارست الحرب باعتبارها حلا لحالات اللاتوازن، فإن هذا ليس أكثر منطقية من أن هذه الإنسانية ذاتها وفي الفترة ذاتها قررت أن تقدم حلا للاختلالات النفسية من خلال الاتجاه إلى الكحول أو مواد لها المفعول المدمر نفسه.

وهنا يجب استحضار حجة الطابو. وقد سبق أن اقترح مورافيا حلا يقول: بما أن الإنسانية بلورت لمدة طويلة طابو زنا المحارم بعد أن تأكد لها بأن زواج الأقارب يعطي نتائج سلبية، فإننا قد نكون أمام النتيجة نفسها حيث بدأت الإنسانية تحس بالحاجة الغريزية لتحريم الحرب. وقد أجابوه بواقعية،

(6) الحروب البونية guerres puniques سلسلة من الحروب التي اندلعت بين الإمبراطورية القرطاجنية وجمهورية روما التي كانت آنذاك في عز ازدهارها. فالحرب الأولى كانت بدايتها مع محاولة روما ضم صقلية إلى ترابها وقد كانت تابعة حينها جزئيا لقرطا ج واستمرت من سنة 264 قبل الميلاد إلى سنة 241 منه. أما الحرب الثانية فاندلعت سنة 218 واستمرت إلى 202 منه. أما الحر ب الثالثة فاندلعت سنة 149 واستمرت ثلاث سنوات إلى 146 قبل الميلاد. (المترجم).

بأن الطابو لا «يُعلن عنه» من خلال قرار أخلاقي أو فكري، بل يتشكل ضمن سيرورة طويلة جدا ويتبلور في المناطق المظلمة للوعي الجمعي (وللأسباب ذاتها التي تجعل من شبكة عصبية قادرة على الوصول وحدها إلى وضعية توازن). بالتأكيد فالطابو لا يتخذ بقرار، إنه نتيجة إفراز ذاتي. ولكن هناك تسريع لإيقاع زمن النمو. فمن أجل التيقن أن الارتباط بالأم أو بالأخت يقود إلى غياب التبادل بين الجماعات، كنا في حاجة إلى عشرات الآلاف من السنين ـ وفي جميع الحالات، تطلب ذلك زمنا طويلا قبل أن تحدد الإنسانية رابطا سببيا بين الممارسة الجنسية والحمل. ولم يتطلب التأكد من أن شركات الطيران ستغلق أبوابها مع اندلاع الحرب سوى أسبوعين. وسيكون إعلان ضرورة الطابو، وهو طابو لا أحد يمتلك حق الإعلان عن ميلاده من خلال تحديد مرحلة نضجه، أمرا متطابقا مع الواجب الفكري والحس السليم.

إنه لواجب ثقافي أن نعلن استحالة الحرب. حتى ولو لم يكن هناك حل بديل. وفي أحسن الحالات كان يجب أن نذكر أن قرننا كان في حوزته بديل رائع للحرب، أي الحرب الباردة. إن التاريخ الذي كان يعد بالفظاعات والظلم واللاتسامح والحروب المحلية والرعب المنتشر في كل مكان، يجب أن يدرك في النهاية أن الأمر يتعلق بحل إنساني جدا وغير مضر نسبيا، وقد عرف منتصرين ومنهزمين. ولكنه ليس من وظائف المثقف الإعلان عن حروب باردة.

فما اعتبره البعض صمتا للمثقفين حول الحرب قد يكون مرده الخوف من إعلان موقف متسرع في الصحافة، لأن الصحافة تعد جزءا من هذه الحرب وأدواتها، ولذلك لا يجب التعامل معها باعتبارها طرفا محايدا. وبالإضافة إلى ذلك، فإن زمن الصحافة هو غير زمن الموقف المتأني. إن الوظيفة الثقافية تمارس دوما بشكل استباقي (حول ما يمكن أن يحدث) أو بشكل متأخر (ما حدث)، ولا تحلل إلا نادرا ما يجري بشكل مباشر. ومرد هذا أسباب لها علاقة بالإيقاع، فالأحداث تتم بسرعة وتمارس ضغطا، وهي بذلك مختلفة عن التأمل فيما يجري. ولهذا السبب انكب بارون كالفينو[7] على الأشجار: لا لأنه كان يريد التهرب من واجب المثقف في التعرف على قضايا زمنه وأن يشارك فيها، بل فعل ذلك من أجل فهمها والمشاركة فيها بشكل أفضل.

ومع ذلك، فإن التفكير في الحرب، حتى في الحالة التي يختار فيها هذا التفكير الالتزام بمساحات واسعة للصمت التكتيكي، فإنه ينتهي دائما بالكشف عن صمته بصوت عال. يجب أن نعي تناقضات التصريح بالصمت، تلك القوة الإقناعية لفعل عاجز، فالتأمل لا يعفي من تحمل المسؤولية الفردية. ولكن الواجب الأول الآن يكمن في التصريح بأن الحرب تلغي

(7) بارون هو شخصية من شخصيات رواية الكاتب الإيطالي إيتالو كالفينو التي تحمل العنوان التالي **Le Baron perché** وكتبها سنة 1957 تحكي وقائع حياة أرستقراطي إيطالي شاب قرر ذات يوم أن يتسلق شجرة لكي لا ينزل أبدا، وقد قضى حياته كلها فوق تلك الشجرة ليثبت للناس معنى الحرية.(المترجم).

كل مبادرة إنسانية، وحتى هدفها الظاهر (والنصر الظاهر لشخص ما) لا يوقف اللعبة التي تخلصت منذ الآن من الثقل الذي تسرب إلى هذه الشبكة ذاتها. ذلك أن ثقلا ما «بقدر ما هو ثقل بقدر ما هو خانق، وبقدر ما يخنق، بقدر ما يصبح تابعا. . . وهو ما يعني الهبوط أيضا، ذلك أن النقطة الموالية تتجاوز في وضاعتها ذلك الذي يستطيع كل مرة الحصول على. . . إن الثقل لا يمكن أبدا إقناعه بشيء ما» ميكائيلستادلير[8] Michaelstaedter).

لا يمكن تبرير هذا الهبوط، لأنه ـ بلغة حق الانتماء إلى الفصيلة ـ أفظع من الجريمة: إنه تبذير.

II كوسوفو (ابريل 1999)

في ديسمبر 1993 أقيم في السوربون، تحت رئاسة الأكاديمية الكونية للثقافات، مؤتمر حول مفهوم التدخل الدولي. وشارك في المؤتمر قانونيون وفلاسفة وعسكريون وسياسيون، وكان هناك أيضا فلاسفة ومؤرخون أمثال بول ريكور وجاك لوغوف، ومنظمة «أطباء بدون حدود» ممثلة ببرنار كوشنير، وممثلون عن أقليات اضطهدت في الماضي مثل إيلي فييستل Elie Wiestel وأرييل دورفمان Ariel Dorfmann وطوني موريسو Tonni Morrison، وضحايا القمع تحت ظل كل الدكتاتوريات من أمثال ليزيك كولاكوفسكي Lessek Kolakofski وبرونيسلاف جيريميك Bronislav Geremek أو جورج سيبرين George Semprun، المهم

(8) Carlo Michaelstaedter (1887-1910) فيلسوف ورسام إيطالي (المترجم)

كان هناك الكثير من الناس الذين لا يحبون الحرب، ولم يحبوها أبدا ويرغبون في ألا تقوم مرة ثانية[9].

لقد كان هناك تخوف من استعمال كلمات من قبيل «تدخل» التي توحي كثيرا بما يمكن أن يدل على التدخل في الشأن الداخلي (صاغونت[10] sagonte كانت تدخلا ومكنت الرومان من الانتصار على القرطاجيين)، وكان من المفضل استعمال كلمة من قبيل «عملية دولية». فهل كان الأمر يتعلق بنفاق لا أقل ولا أكثر؟ لا أعتقد ذلك، فالرومان الذين تدخلوا لصالح صاغونت هم رومان أيضا، وكفى. أما هنا، فإن الأمر يتعلق بالمجموعة الدولية، أي مجموعة من الدول تبين لها أن الوضعية، في مكان ما من العالم، وصلت إلى حد لا يمكن التسامح حوله وقررت التدخل من أجل وضع حد لما يعتبره الضمير المشترك جريمة.

ولكن ما هي الدول المشكلة لهذه المجموعة الدولية، وأين تنتهي حدود الوعي المشترك؟ يمكن، بالتأكيد، القول بأن القتل في كل الحضارات أمر مرفوض، ولكن فقط ضمن حدود بعينها. فنحن الأوروبيين والمسيحيين، نعتبر القتل دفاعا عن

---

(9) نشرت أعمال هذه المناظرة في: intervenir? droit de la personne et raison d'état, Paris, Grasset, 1994.

(10) ساغونت مدينة إسبانية انحازت إلى قوات روما في حربها ضد قوات قرطاج بقيادة حنابعل وخضعت لحصار دام 8 اشهر، ودمرت عن آخرها بعد مقاومة شرسة سنة 218 قبل الميلاد. وكان هذا الحدث إيذانا بالحرب البونية الثانية التي بدأت سنة 212 قبل الميلاد.(المترجم)

النفس أمرا مشروعا، ولكن الشعوب القديمة لأمريكا الوسطى كانت تقبل بالتضحية الطقوسية، والسكان الحاليون للولايات المتحدة يقبلون بمبدأ الحكم بالإعدام.

إن إحدى توصيات هذا المؤتمر الذي عرف الكثير من الجدال كانت تقول، كما هو الشأن مع الجراحة، إن التدخل يعني العمل بنشاط من أجل القضاء على الداء. إن الجراحة تهدف إلى الخير، إلا أن مسائلها عنيفة. فهل يمكن القبول بجراحة دولية؟ إن الفلسفة السياسية الحديثة تخبرنا أنه من أجل تجنب حرب شاملة، على الدولة أن تمارس نوعا من العنف ضد الأفراد. إلا أن هؤلاء الأفراد تعاقدوا فيما بينهم للعيش سويا. فماذا سيحدث بين دول لا يوجد بينها ميثاق مشترك؟

عادة ما تعتقد مجموعة ما أنها تملك قيما واسعة الانتشار (الدول الديمقراطية في عرفنا)، إنها تقيم حدودا حول ما تراه أنه أمر لا يمكن التسامح معه. إن الحكم بالإعدام بسبب الرأي لا يمكن التسامح معه. إن القتل الجماعي لا يمكن التساهل في شأنه. إن التعقيم أمر لا يمكن القبول به أيضا (الممارس عندنا على الأقل). ولهذا السبب، تقرر الدفاع عن الذين يتعرضون لأذى يندرج ضمن ما لا يمكن التسامح في شأنه. ولكن علينا أن نوضح أمرا: إن هذا الذي لا يمكن التسامح بشأنه هو كذلك في عرفنا نحن، وليس في عرفهم «هم».

من هذه «النحن»؟ هل تشير إلى المسيحيين؟ ليس ذلك

بالضرورة. فهناك مسيحيون محترمون جدا، حتى وإن لم يكونوا كاثوليكيين، يساندون ميلوزيفيتش. والأجمل من ذلك أن هذه «النحن» (حتى وإن تم تحديدها من لدن معاهدة الأطلسي) هي «نحن» غامضة. إنها مجموعة تشترك في بعض القيم.

والحاصل، عندما تقرر التدخل استنادا إلى قيم مجموعة ما كان هناك رهان: الاعتراف بأن قيمنا، وتصورنا للحدود الفاصلة بين المسموح به وغير المسموح به، هي قيم عادلة. إن الأمر يتعلق هنا برهان تاريخي شبيه بذاك الذي يمنح الشرعية للثورات أو السلطات الاستبدادية: من يقول لي إني أملك الحق في ممارسة العنف (وأي عنف في بعض الأحيان) من أجل إقامة ما أعتبره عدالة منتهكة؟ ففي عرف الذي يعارض هذا العنف، ليس هناك أبدا ما يبرر ثورة، أما في عرف الذي ينخرط فيها، فإنه يعتقد أن فعله له ما يبرره. إن الأمر ليس كذلك في تدخل دولي.

إن هذه الوضعية هي التي تفسر القلق الذي نحس به في هذه الأيام. هناك أذى رهيب يجب الوقوف في وجهه (التطهير العرقي): هل التدخل العسكري مبرر أم لا؟ هل من الضروري أن نعلن حربا من أجل منع ظلم ما؟ هذا أمر ممكن وفق منطق العدالة. ولكن كيف سيكون الأمر في عرف الرحمة؟ وهنا أيضا تطرح قضية الرهان: إذا كنت أستطيع، بأقل ما يمكن من العنف، أن أمنع حدوث ظلم كبير، أكون قد تصرفت باسم الرحمة، كما يفعل ذلك الشرطي الذي يطلق

الرصاص على مجرم مجنون لينقذ حياة مجموعة من الأبرياء.

ولكن الرهان مزدوج. فمن جهة نراهن على أننا نتحرك ضمن الحس المشترك، وأن ما نود القضاء عليه هو شيء مرفوض كونيا (ولا نكترث للذي لا يفهم ذلك أو لا يقبله). ومن جهة ثانية نراهن على أن العنف الذي نبرره سينجح في الوقاية من عنف أشد.

إن الأمر يتعلق بقضيتين مختلفتين تماما. أحاول هنا أن أضع الأول باعتباره أمرا بديهيا، وهو ليس كذلك على الإطلاق، فما أقدمه هنا يتعلق بمقالة في صحيفة، خاضعة لإكراهات المساحة والفهم. وبعبارة أخرى، إن القضية الأولى بالغة الخطورة ومقلقة، لدرجة لا يمكن ولا يجب التعامل معها في الجرائد. فلنقل إذن إنه أمر عادل أن نمارس العنف، من أجل تجنب جريمة من قبيل التطهير العرقي (وهي جريمة تشتمل على جرائم أخرى وفظاعات أخرى عرفها قرننا). ولكن القضية الثانية متمثلة في معرفة ما إذا كانت نوعية العنف الذي سنمارسه يمكن أن يقينا فعلا من وبال عنف أشد. لسنا هنا أمام مشكلة أخلاقية، بل أمام مشكلة تقنية، وهي قضية لها وجه أخلاقي: إذا كان الظلم الذي أخضع له لا يقيني من ظلم أشد فهل يمكن ممارسته؟

إن هذا الأمر يعادل خطابا حول جدوى الحرب، بمعنى الحرب التقليدية التي تقوم وتستمر إلى النهاية بهدف دحر العدو وانتصار المنتصر. إن الخطاب حول لاجدوى الحرب صعب،

لأنه يدفع إلى الاعتقاد أن صاحبه ينحاز إلى الظلم الذي تحاول الحرب الوقاية منه. إن الأمر يتعلق هنا بابتزاز سيكولوجي. فإذا قال شخص ما مثلا إن كل شرور صربيا أصلها دكتاتورية ميلوزيفيتش، وإذا استطاعت مصالح الاستخبارات الغربية قتله، فسيحل كل شيء في يوم واحد. إن هذا الشخص ينتقد الحرب باعتبارها أداة مجدية لحل مشكلة كوسوفو، ولكنه لن يكون من مناصري ميلوزيفيتش. فهل هذا صحيح؟ فلماذا لم يناد أحد بهذا الموقف؟ تم ذلك لسببين. السبب الأول هو أن كل المصالح الاستخباراتية في العالم تعرف أن هذا الموقف لا فعالية له، فهي لم تستطع قتل كاسترو وصدام حسين، ومن العار أن نبذر المال العام لصالحهم. السبب الثاني ليس صحيحا أن الصرب يتصرفون بهذه الطريقة نتيجة جنون دكتاتور. إنها كراهية عرقية موغلة في القدم تخصهم هم وأعراقا أخرى في البلقان، وهو أمر يزيد القضية تعقيدا.

ولنعد الآن إلى الخطاب القائل بجدوى الحرب. ما هي الأهداف التي كانت ترومها الحروب القديمة؟ دحر العدو والاستفادة من هزيمته. وكان هذا يفترض ثلاثة شروط: أن تظل قوتنا وأهدافنا سرية لكي نفاجئ العدو؛ أي وجود جبهة داخلية قوية؛ أن تستعمل كل القوات المتوفرة من أجل تدمير العدو. ولهذا السبب، كان يتم القضاء في كل الحروب القديمة (بما فيها الحرب الباردة) على أولئك الذين ينتمون إلى الجبهة الصديقة، ويمدون العدو بالمعلومات (تنفيذ حكم الإعدام في ماتا هاري

رميا بالرصاص[11]، وعائلة الروسنبورغ[12] بالكرسي الكهربائي)، ونمنع الدعاية التي تبثها الجبهة المعادية (يوضع الذين يستمعون إلى راديو لندن في السجن، لقد اعتقل ماكارتي[13] المساندين للشيوعية في هوليوود). ونعاقب الذين يعملون ضد بلدهم من الجبهة المعادية (شنق جون أميري[14] والعزل الأبدي لعزرا باوند[15] كل ذلك حتى لا يتم المساس بالروح المعنوية للمواطنين. وفي الأخير نقنع الجميع بأن العدو يجب أن يقتل وتهلل بلاغات الحرب عندما يتم دحر قوات العدو.

لقد تم التشكيك في هذه الشروط في الحرب الجديدة الأولى، ومنها حرب الخليج، ولكن مازال هناك من ينسب هذه الانشقاقات إلى غباء الشعوب الملونة التي مازالت تقبل بوجود الصحافة الأمريكية بين ظهرانيها، ربما عن زهو، أو نتيجة فساد. أما الآن فالأمور واضحة، إيطاليا تبعث بطائراتها

(11) Mata Hari واسمها الحقيقي Margaretha Geertruida 1876-1917 راقصة حكمت عليها فرنسا بالإعدام بتهمة التجسس ونفذ حكم الإعدام فيها في 15 أكتوبر 1917 (المترجم)

(12) Julius Rosenberg 1918 مهندس كهربائي وزوجته Ethel Rosenberg 1915، يهوديان من الحزب الشيوعي الأمريكي اتهما بالتجسس لصالح الاتحاد السوفييتي وحوكما سنة 1949 ونفذ فيهما الحكم في 19 يونيو 1953 (المترجم)

(13) Joseph McCarty سياسي أمريكي 1908 ـ 1957 عرف عنه معاداته الشديدة للشيوعية ومطاردته للشيوعيين في أمريكا، بما فيها فناني هوليود (المترجم)

(14) John Amery 1912-1945 سياسي انجليزي كان وزيرا مكلفا بالمستعمرة الهندية. كون فرقة عسكرية من الأسرى وخرج على طوع النظام، فتم إيقافه في ميلانو وأعدم سنة 1945. (المترجم)

(15) Ezra Pond كاتب وموسيقي وناقد أمريكي (1885 - 1972) عرف بآرائه الجريئة اتجاه الدين والجنس، وقد حورب واعتقل وعزل. (المترجم)

إلى صربيا ولكنها تحافظ على علاقاتها مع يوغوسلافيا، تلفزيونات حلف الأطلسي تبث على مدار الساعة في اتجاه صربيا وتتحدث عن نوعية الطائرات المغيرة التي تنطلق من مطار أفيانو، وعملاء صربيا يساندون حكومتهم ويعلنون ذلك في تلفزيونات الحلف الأطلسي، صحفيون من بلغراد يبعثون بقصاصاتهم بدعم من السلطات المحلية. فهل يتعلق الأمر بحرب عندما يرابط العدو بين ظهرانيك ويروج لأطروحات جبهته؟ في الحرب الجديدة كل طرف من الأطراف له عدو في خلفيته، وبإعطاء الكلمة للعدو باستمرار فإنك تحط من معنويات المواطنين (والحال أن كلاوسفيتش كان يذكر بأن شرط النصر هو التماسك الداخلي لمجموع المقاتلين).

ومن جهة ثانية، وحتى في الحالة التي تمنع فيها الصحافة، فإن الوسائل التكنولوجية الحديثة تمكننا من نقل سيل من المعلومات لا أحد يستطيع الوقوف في وجهها ـ ولا أعرف إلى أي حد يمكن لميلوزيفيتش أن يوقف التقاط إذاعات العدو، دون أن أتحدث عن الأنترنيت.

يبدو أن كل الحجج التي سقتها تتناقض مع المقال الرائع الذي كتبه لفوريو كولومبو في جريدة la republica الصادر يوم 19 أبريل الماضي حيث يؤكد إن القرية الكونية على الطريقة المكارثية ماتت يوم 13 أبريل 1999 عندما رهنوا أنفسهم لهاتف ريفي لموظف من هيئة دولية غير قادر على الحسم في أمر التسلل الصربي إلى التراب الألباني، هل حدث فعلا أم لم

يحدث أبدا، يحدث هذا في عالم الصحافة والهاتف المحمول والعملاء. «لا نعرف أي شيء عن الصرب، ولا يعرف الصرب عنا أي شيء، والألبان لا يستطيعون رؤية أي شيء من خلال الموج العارم الذي يغرق كل شيء، ومقدونيا تتعامل مع اللاجئين باعتبارهم أعداء وتعتدي عليهم». وهذا معناه أن هذه الحرب هي حرب يعرف فيها كل طرف كل شيء عن الآخر أو لا يعرف عنه أي شيء؟ إن الأمر يتعلق بالحالتين معا.

إن الجبهة الداخلية شفافة، أما الحدود فغامضة. إن عملاء ميلوزيفيتش يعبرون عن آرائهم في صحافتنا السياسية، في حين لم نعد نعرف أي شيء عن الجبهة التي كان الجنرالات قديما يستكشفون ما يجري فيها من خلال منظارهم ويتعرفون جيدا على مواقع العدو.

يحدث هذا الأمر لأنه إذا كان الهدف من الحرب القديمة هو تدمير أكبر عدد ممكن من الأعداء، فإن ميزة الحرب الجديدة هي العمل على قتل أقل عدد ممكن، ذلك أننا إذا قتلنا الكثير منهم، فإننا سنكون عرضة لسخط الصحافة. ففي الحرب الجديدة، لا نرغب في تدمير العدو لأن الصحافة تعرينا أمام موت العدو ـ لأن الأمر لا يتعلق بحدث قديم، بل ببديهية مرئية لا يمكن تحملها. فكل جيش يقدم نفسه، في الحرب الجديدة، على أنه هو الضحية. يتحدث ميلوزيفيتش عن خسارات فادحة في صفوفه (سيستحي موسوليني من ذكر خساراته)، ويكفي أن تسقط طائرة واحدة للحلف الأطلسي

لكي يتأثر الجميع بذلك. وباختصار، فإن الخاسر في الحرب الجديدة سيكون في أعين الرأي العام هو ذاك الذي قتل أكثر من اللازم. وعليه، لا أحد في الجبهة يجابه الآخر ولا أحد يتوارى عن الآخر. وباختصار، فإن الحرب الجديدة شبيهة بـ «القنبلة الذكية» التي يجب أن تدمر العدو دون أن تقتله، وهذا ما يفسر تصريح وزرائنا «نحن لا نتصادم مع العدو أبدا»، وهناك، مع ذلك، الكثير من القتلى، وهذا لا قيمة له من الناحية التقنية. وعلى العكس من ذلك، فإن سلبية الحرب الجديدة هي أن هناك من يموت دون أن يكسب الحرب.

فهل الأمر صحيح ألا أحد يعرف كيف يدير حربا جديدة؟ لا أحد، وهذا أمر طبيعي. لقد كان توازن الرعب يهيئ الاستراتيجيات لمجابهة نووية، لا من أجل خوض حرب ثالثة تكسر كلي صربيا[16]. إن الأمر يتم كما لو أن المتفوقين في الكلية المتعددة التقنيات كانوا مكرهين لمدة خمسين سنة على ابتكار ألعاب إلكترونية. فهل تتجرأون اليوم وتتركونهم يبنون جسورا؟ ومع ذلك، فإن القوة النهائية للحرب الجديدة لا تكمن في غياب كلي لأي شخص بلغ حاليا من النضج حدا يمكنه من القيام بحرب ـ ذلك أن هذه الحرب، في جميع الحالات، لن تقع، فالحرب الجديدة هي لعبة سنخسرها، لأن التكنولوجيا المستعملة أكثر تعقيدا من عقل المستعملين ومن

(16) «Briser les reins de la Grèce» تعبير كان موسوليني يردده في الحرب العالمية الثانية.

حاسوب بسيط يمكن، رغم غبائه، أن يحدث كوارث لا يمكن أن يتوقعها المستعمل.

يجب أن نتدخل من أجل كبح جماح القومية الصربية، ولكن قد تكون الحرب سلاحا غير مجد. قد يكون الأمل الوحيد هو الجشع الإنساني. فإذا كانت الحرب القديمة تغني تجار السلاح ـ ربح يمكن أن يقود إلى التخلي عن قطاعات التبادل التجاري الأخرى ـ فإن الحرب الجديدة، رغم أنها تمكن من تسويق مزيد من السلاح قبل أن يتقادم، فإنها تصيب في مقتل وضعية النقل الجوي والسياحة ووسائل الاتصال ذاتها (الخسارات في الإشهار)، وعموما كل صناعة الكماليات. فإذا كانت الصناعة الحربية في حاجة إلى توترات، فإن صناعة الكماليات في حاجة إلى السلم. سيكون هناك عاجلا أو آجلا رجل أقوى من كلنتون وميلوزيفيتش وسيقول «كفى»، وسيقبل الاثنان التخلي عن مواقعهما، من أجل إنقاذ ما تبقى. صحيح أن الأمر محزن، ولكنه حقيقي.

الفاشيــة الأبديــة



في سنة 1942، وكان عمري آنذاك 12 سنة، حصلت على الجائزة الأولى في مباراة «ألعاب الشباب»[1] (وهي مباراة مفتوحة بالقوة لكل الشباب الفاشي الإيطالي ـ تصوروا لكل الشباب الإيطالي). ولقد قدمت موضوعا بأسلوب بلاغي راق حول موضوع يحمل العنوان التالي: «هل يجب أن نموت من أجل مجد موسوليني ومجد إيطاليا الخالد؟ لقد كان جوابي تأكيديا بطبيعة الحال. لقد كنت طفلا بالغ النباهة.

وفي سنة 1943 اكتشفت معنى كلمة حرية. وسأحكي لكم قصة ذلك في ختام عرضي هذا. ففي تلك الفترة لم تكن الحرية تعني التحرر.

لقد قضيت سنتين من شبابي أتنقل بين أحضان فرقة ال ss والفاشيين والأنصار الذين كانوا يقتتلون فيما بينهم، وتعلمت كيف أتفادى الرصاص، ولم يكن ذلك دون جدوى.

وفي أبريل 1945، استولى الأنصار على ميلانو. يومين بعد ذلك، وصلوا المدينة الصغيرة التي كنت أقطن بها. لقد كانت فرحة عارمة. عجت الساحة بالناس، الكل كان يغني

(1) ludi Juveniles من اللاتينية (المترجم)

ويلوح بالأعلام، ويردد بأصوات عالية اسم ميمو. لقد كان ميمو رئيسا للأنصار في تلك المنطقة، وهو في الأصل مارشالا سابقا في الدرك الإيطالي وانضم إلى بادوغليو[2]، وفقد رجلا في الاشتباكات الأولى. وأطل من شرفة البلدية، كان شاحبا ويتكئ على عكازين، وأشار بيده إلى الحشود بالهدوء. لقد كنت أنتظر منه خطابا، فقد نشأت في طفولتي على الخطابات التاريخية لموسوليني، وكنا نحفظ مقاطعها الهامة عن ظهر قلب. الصمت. وبصوت أجش، من الصعب تبينه تكلم ميمو: «أيها المواطنون، أيها الأصدقاء، بعد كل هذه التضحيات المؤلمة، ها نحن نلتقي من جديد. فالمجد للذين سقطوا من أجل الحرية». وهذا كل ما قاله. ودخل إلى الغرفة. وظلت الحشود تصرخ، ورفع الأنصار سلاحهم وأطلقوا النار في الهواء بفرح. أما نحن الصغار، فقد تسابقنا لالتقاط أغشية الرصاص، لقد كانت أشياء ثمينة يمكن الاحتفاظ بها، ولكنني أدركت أن حرية الكلام تعني الحرية من الناحية البلاغية.

أياما بعد ذلك، رأيت بعض الجنود الأمريكيين يدخلون المدينة. لقد كانوا سودا: فأول يانكي صادفته في حياتي كان أسود، وكان اسمه جوزيف وفتح عيني على عجائب ديك

(2) Pietro Badoglio (1871 ـ 1956) سياسي وعسكري إيطالي، كان قائدا للجيش الإيطالي في الحرب على الحبشة، أصبح رئيسا للوزراء بعد سقوط موسوليني سنة 1943. (المترجم).

تراسي وليل أبنير. لقد كانت هذه الأشرطة ملونة، وكانت تفوح منها رائحة طيبة.

لقد وضعت عائلة صديقي فيلتها رهن إشارة أحد الضباط ـ الماجور أو القبطان مادي ـ وكنت أشعر كأنني في منزلي في هذه الحديقة حيث تحيط نساء يتكلمن الفرنسية بهذا الضابط. كان القبطان قد تلقى تعليما عاليا، وربما كان حاصلا على الإجازة، وكان يتكلم شيئا ما الفرنسية. وهكذا فالصورة الأولى التي تلقيتها عن المحررين الأمريكيين، بعد مجموعة كبيرة من الوجوه الشاحبة بقمصان سوداء، كانت لأسود مثقف ببذلة عسكرية صفراء ـ خضراء ويقول: نعم، شكرا جزيلا سيدتي، أنا أيضا أحب الشامبانيا». ومع الأسف لم يكن هناك شامبانيا، لكن القبطان مادي أعطاني أول علكة لكتها اليوم كله. وعندما حل الليل وضعتها في الماء لكي تحتفظ بليونتها لليوم الموالي.

وفي شهر ماي، أُعلن عن نهاية الحرب. لقد كان وقع السلم غريبا علي. لقد كانت الحرب الدائمة ـ كما قيل لي ـ الشرط الضروري في حياة شاب إيطالي. وفي الشهور الموالية، اكتشفت أن المقاومة لم تكن ظاهرة محلية، بل عرفتها أوروبا بأكملها. وتعلمت كلمات جديدة ومثيرة من قبيل: شبكة، الماكي[3]،

(3) Maquis تحيل على الثوار الذين يلتحقون بالجبال ويعلنون الثورة على النظام السياسي أو مقاومة المستعمر (المترجم)

الجيش السري، روت كابل، غيتوهات وارسو. وشاهدت الصور الأولى للهولوكوست، وأدركت دلالاته قبل أن أعرف الكلمة. وأدركت من أي شيء تم تحريرنا.

هناك في إيطاليا من يتساءل اليوم عن الأثر العسكري الفعلي للمقاومة على مصير الحرب. إن هذا السؤال، في تصور جيلي، بليد وبلا معنى: لقد أدركنا بسرعة الدلالة الأخلاقية والنفسية للمقاومة. لقد شعرنا نحن الأوروبيين بزهو، فلم نقف مكتوفي الأيدي ننتظر التحرير. ويبدو لي أن الأمر بالنسبة للشاب الأمريكي الذي رحل إلى أوروبا لكي يقدم حقه من الدم، كان يعرف أن وراء خطوط العدو أوروبيين يقومون بدورهم، ولم يكن ذلك بالأمر الهين في نظرهم. وفي إيطاليا من يقول أيضا إن المقاومة كانت أسطورة شيوعية. صحيح أن الشيوعيين استغلوا المقاومة واعتبروها ملكية خاصة لهم، فقد لعبوا دورا رئيسا فيها، ولكني، من ناحيتي، أتذكر مقاتلين كانوا يضعون شالات من لون مختلف. كنت ألتصق بالراديو وأغلق الأبواب والنوافذ للاستماع إلى الرسائل التي كانت تبثها محطة لندن. لقد كانت الرسائل شعرية وغامضة في الوقت ذاته (من قبيل «الشمس مازالت تشرق»، «ستزهر الورود») وكان أغلبها موجها إلى «أصدقاء فرانشي»، وقيل إن فرانشي هذا كان قائدا لأقوى مجموعة سرية في الشمال الإيطالي. وأصبح فرانشي بطلي الخاص. لقد كان فرانشي، واسمه الحقيقي هو إدغاردو سونيو، ملكيا،

وكان مناهضا للشيوعية إلى حد أنه التحق، بعد الحرب، باليمين المتطرف، واتهم بمحاولة القيام بانقلاب عسكري رجعي. ولكن لا يهم. لقد ظل سونيو هو سونيو طفولتي. لقد ساهم الجميع في تحرير إيطاليا.

وهناك في إيطاليا من يقول اليوم إن حرب التحرير كانت فترة مأساوية قادت إلى الكثير من الانقسامات، ونحن الآن في حاجة إلى مصالحة وطنية. يجب التخلص من هذه الذكريات المرعبة. ولكن للأمر وجه آخر، إن التخلص هو مصدر العصاب. فإذا كانت المصالحة تعني مواساة واحترام أولئك الذين خاضوا الحرب بصدق، فإن العفو لا يعني النسيان. وبإمكاني أن أقبل أن يعتقد إشمان[4] بصدق في مهمته، ولكنني لن أصدق على ذلك بالقول «ok»، عد وافعل ما فعلته من قبل». نحن هنا للتذكير بما مضى والتأكيد أن هذا يجب ألا يتكرر مرة ثانية. ولكن من هم هؤلاء؟

فإذا استحضرنا تجربة الحكومات التوتاليتارية التي حكمت أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية، أمكننا التأكيد دون تردد استحالة عودتها بالشكل نفسه ضمن شروط تاريخية مختلفة. فإذا كانت فاشية موسوليني قائمة على فكرة قائد كارزماتي وانعزالي، وقائمة على طوباوية القدر الخالد لروما، وعلى

(4) Adolf Eichmann 1906-1962 موظف كبير في ألمانيا النازية، عضو في فرقة المراقبة .SS ألقي عليه القبض بعد الحرب العالمية وحوكم في القدس بتهمة إبادة اليهود.(المترجم)

شكل إرادة إمبريالية في فتح أراض جديدة، وعلى وطنية شوفينية، وعلى مثال أمة يرتدي كل أفرادها ياقة سوداء وترفض الديمقراطية البرلمانية، وعلى النزعة المعادية للسامية، في هذه الحالة سأقبل بسهولة أن يكون «التحالف الوطني»(5) المنبثق عن «الحركة الاجتماعية الإيطالية» حزبا يمينيا، ولكنه حزب لا علاقة له بالفاشية القديمة. إنني لا أعتقد، للأسباب نفسها، حتى وإن كنت منشغلا بمجموعة من الحركات النازية الناشطة في أوروبا، بما فيها روسيا، أن النازية في صيغتها الأصلية يمكن أن تعود من جديد كحركة قادرة على جذب أمة بأكملها.

ومع ذلك، فإننا حتى في حالة إمكانية قلب أنظمة سياسية، وانتقاد إيديولوجيات وحرمانها من أية شرعية، فإننا سنعثر وراء كل نظام وكل إيديولوجية، على طريقة في التفكير والإحساس، وعلى سلسلة من العادات الثقافية، وعلى شحنة من الغرائز الغامضة ودواع لا يمكن تحديديها. إن الأمر يتعلق بشبح آخر يتهدد أوروبا (دون أن نتحدث عن مناطق أخرى في العالم).

الكلمات وحدها لها قيمة وما عداها ليس سوى هذر، هذا ما قاله ذات يوم يونيسكو. إن العادات اللسانية هي دائما أعراض أساسية لأحاسيس لم يتم التعبير عنها.

---

(5) alleanza nazionale حزب يميني إيطالي ظهر سنة 1995 وهو الوريث الشرعي للحركة الاجتماعية الإيطالية، ومؤسسه هو جيانفرانكو فيني (المترجم)

فلتسمحوا لي إذن بوضع سؤال: لماذا لم يُنظر إلى المقاومة وحدها باعتبارها حربا على الفاشية، وصنفت الحرب العالمية كلها باعتبارها كذلك؟ فإذا قرأتم رواية «لمن تدق الأجراس» لهمنغواي، فسترون أن روبير جوردان[6] يصنف أعداءه باعتبارهم فاشيين حتى عندما يتحدث عن الكتائب الإسبانية.

وإذا سمحتم سأترك الكلمة ل ف. د. روزفلت: «سيكون انتصار الشعب الأمريكي وحلفائه انتصارا على الفاشية وعلى هشاشة الاستبداد الذي يمثله» (23 ديسمبر 1944).

لقد أطلقوا على الأمريكيين الذين شاركوا في الحرب الأهلية الإسبانية، في الفترة التي سادت فيها المكارثية[7]، مناهضين غير ناضجين للفاشية ـ ومعناه أن محاربة هتلر في سنوات الأربعينيات كانت تعد واجبا أخلاقيا على كل أمريكي، أما محاربة فرانكو قبل ذلك، في الثلاثينيات، فكانت مجرد هرطقة. لماذا كان الراديكاليون الأمريكيون يستعملون عبارات من قبيل «فاشستي خنزير» للإحالة على سياسي لا يتفق معهم في تناول السجائر نفسها؟ لماذا لا يقولون: المقنع الوسخ، الكتائبي الوسخ، الأوستاشي الوسخ[8]، والخائن

---

(6) الشخصية الرئيسية في رواية «لمن تدق الأجراس» للكاتب الأمريكي إرنست همنغواي (المترجم).

(7) نسبة إلى مكارثي الذي خاض حربا شعواء ضد الشيوعيين في امريكا (المترجم).

(8) شكل Oustachi وهي مشتقة من الكلمة البوسنية الكرواتية ustaša التي تعني ثوري الحزب الفاشي الكرواتي (المترجم)

بافيليك الوسخ[9]، كيسلينغ الوسخ[10]، النازي الوسخ؟.

لقد شكل كتاب «كفاحي» بيانا كاملا لبرنامج سياسي. لقد كانت النازية تمتلك تصورا للعنصرية والأريانية وتصورا آخر لا يقل دقة عما كانت تسميه «الفن الفاسد»، ويتعلق الأمر بفلسفة للإرادة والقوة. لقد كانت النازية نظرية ملحدة ووثنية جديدة، تماما كما كانت الديامات diamat التي صاغها ستالين مادية وملحدة (diamat هي الصيغة الرسمية للماركسية السوفيتية). فإذا كنا نعني بالتوتاليتارية نظاما ربط كل فعل فردي بالدولة وإيديولوجيتها، فإن النازية والستالينية كانتا نظامين توتاليتاريين.

لا مراء أن الفاشية كانت نظاما دكتاتوريا، ولكنها لم تكن توتاليتارية بالكامل، وذلك لا يعود إلى وجود نوع من الاعتدال فيها، ولكن سبب ذلك يعود إلى غياب فلسفة تسند إيديولوجيتها؛ لم يكن للفاشية الإيطالية، عكس ما نتصور، فلسفة خاصة بها. فالمقال الذي كتبه موسوليني في إنسكلوبيديا تريكاني (L'encyclopédie Treccani) مكتوب أو مستوحى في أسسه من جيوفاني جونتيلي[11]، ولكنه كان يعكس مقولة هيجيلية متأخرة عن الدولة الأخلاقية والمطلقة التي لم يحققها

---

(9) Ante Pavelitch محامي كرواتي من زغريب مؤسس الحزب الفاشي الكرواتي سنة 1929 (المترجم)

(10) Vidkun quisling سياسي نرويجي أسس سنة 1933 الحزب الفاشي النرويجي (المترجم)

(11) Giovanni Gentile (1875-1944) فيلسوف الفاشية الإيطالية، ويقال إنه هو من كتب لموسولوني مبادئ عقيدته الفاشية سنة 1932. (المترجم)

أبدا موسوليني بالكامل: لم يكن في حوزة موسوليني سوى البلاغة. لقد بدأ حياته ملحدا مناضلا لينتهي بالتوقيع على معاهدة بابوية مع الكنيسة، ويحتضن بحرارة الرهبان الذين يعمدون الشعارات الفاشية. هناك خرافة تحكي أن موسوليني طلب من الله، في بدايات مناهضته للمسيحية، أن يصعقه في الحال ليثبت وجوده. والظاهر أن الله كان مشغولا بشيء آخر. وبعد ذلك، أصبح كثير الإحالة على الله، ولم يتردد في أن يقدم نفسه باعتباره رجل العناية الإلهية.

لقد كانت الفاشية بالتأكيد أول دكتاتورية يمينية هيمنت على بلد أوروبي، وقدم نظام موسوليني لكل الأنظمة الدكتاتورية ما يشبه النمط الأصلي المشترك. لقد كانت الفاشية الإيطالية أول من خلق شعارا سياسيا وفلكلورا، بل ونمطا في اللباس ـ نمط لقي نجاحا كبيرا أكثر من ذاك الذي لقيه في الخارج أرماني أو بونوتون أو فيرساس[12]. فلم تبدأ بعض المجموعات الفاشية في الظهور في انجلترا مع موسلاي وفي ليتونيا وإستونيا ولتوانيا وبولونيا وهنغاريا ورومانيا وبلغاريا واليونان ويوغوسلافيا وإسبانيا والبرتغال والنرويج وحتى في أمريكا الجنوبية، دون أن نتحدث عن ألمانيا، إلا في الثلاثينيات. والفاشية الإيطالية هي التي أقنعت الزعماء اللبراليين الأوروبيين بأن النظام الجديد يقوم بإصلاحات

(12) Armai, Benetton, Versave صناع ملابس إيطاليين. (المترجم)

اقتصادية هامة قادرة على أن تقدم بديلا ثوريا معتدلا للتهديد الشيوعي.

والحاصل أن الأسبقية التاريخية لا تكفي في تصوري لشرح الكيفية التي من خلالها أصبحت كلمة فاشية مجازا، ذلك الجزء الذي يدل على كل الحركات التوتاليتارية. لا فائدة من القول إن الفاشية تشتمل في ذاتها على العناصر التوتاليتارية المتتالية، أو كانت طريقة دالة على جوهر. الأمر على خلاف ذلك، فلم يكن للفاشية أي جوهر، بل ولا حتى مادة أصلية. لقد كانت الفاشية عبارة عن كتلة توتاليتارية غامضة[13].

لا تشكل الفاشية إيديولوجية موحدة، إنها خليط من أفكار سياسية وفلسفية متنوعة مليئة بالمتناقضات. فهل يمكن تصور حركة توتاليتارية تجمع بين الملكية والثورة، بين الجيش الملكي وميليشيات موسوليني الشخصية، الامتيازات التي تمنح للكنيسة وتربية دولية تبشر بالعنف، المراقبة الكلية للدولة والسوق الحرة؟ لقد ولد الحزب الفاشي وأعلن نظامه الثوري واستمد تمويله من ملاكين كبار محافظين كانوا يحلمون بثورة مضادة؛ لقد كانت فاشية البدايات فاشية جمهورية واستمرت في الحياة لمدة عشرين سنة معلنة ولاءها للعائلة الملكية، وأباحت للدوتشي[14] الذهاب إلى الأمام جنبا إلى جنب مع ملك منحه

---

(13) Fuzzy يستعمل ل حاليا في المنطق من أجل تعيين مجموعات غامضة بحدود غير ثابتة، ويمكن ترجمته بغامض ومتداخل غير دقيق مقنع.

(14) الدوتشي لقب موسولوني (المترجم).

أحيانا لقب إمبراطور. وعندما أعفى الملك موسوليني في سنة 1943، ظهر الحزب شهران بعد ذلك تحت راية جمهورية «اجتماعية» وأعاد النظر في لحنه الثوري القديم، ونقحه بإيقاعات تكاد تكون يعقوبية[15].

لقد كانت هناك عمارة نازية واحدة وفن نازي واحد. فإذا كان المهندس المعماري للنازية هو ألبير سبير Alber[16]، فلا مكان لمعماري يقال له ميز فان دير روه[17]. وبالمثل، إذا كان لامارك Lamarck[18] زمن ستالين، على حق، فلا حاجة لنا بداروين. ما عرفته الفاشية كان نقيضا لذلك. فإذا كان هناك مهندسون معماريون فاشيون، فإن الكوليزي المزيف كان يتعايش مع البناءات المستوحاة من العقلانية المعاصرة لغروبيوس[19].

(15) les Jacobins اليعقوبية عقيدة سياسية كانت تدافع عن مبادئ الجمهورية الفرنسية وتستمد اسمها من «نادي اليعاقبة» في باريس (المترجم).

(16) ألبير سبير 1905 ـ 1981 مهندس معماري كان وزيرا في ألمانيا النازية. حكم عليه ب20 سنة سجنا في محاكمة نورنبيرغ، وعندما خرج كتب كتابا بعنوان/ في قلب الرايخ الثالث. (المترجم).

(17) Mies Van der Rohe 1886 -1969 مهندس معماري ألماني عرف بجودة أسلوبه، ومن أعلام الأسلوب البوهوسي الذي رأى النور في الثلاثينات وكان يجمع مسرحيين وفنانين تشكيليين (المترجم).

(18) Jean Baptiste Lamarck 1744-1829 عالم طبيعيات فرنسي، اهتم في بداية حياته العلمية بعلم النباتات قبل أن يتحول إلى الاهتمام بتطور الكائنات الحية. وقد عين سنة 1793 أستاذا لتدريس مادة الحيوانات غير الفقرية. . وهو من صاغ «ألو نظرية لتطور الكائنات الحية» (المترجم).

(19) Walter Gropius مهندس معماري ألماني، (1883 ـ 1969) من المؤسسين الفعليين للبوهوس وهو حركة فنية جمعت في أحضانها الرسامين والمسرحيين ومنهم إيتن وكاندينسكي وأوسكار شليمر. (المترجم).

لم يكن هناك جدانوف[20] فاشيا. لقد كانت إيطاليا تمنح جائزتين فنيتين: جائزة غريمونا، وكانت تتم تحت رقابة فاشي جاهل ومتعصب ـ فارناتسي Farinacci ـ كان يدافع عن فن موجه للدعاية (أتذكر أشياء من قبيل «وأنا استمع لخطاب من خطابات الدوتشي في الراديو» أو «الحالات الذهنية التي أفرزتها الفاشية»)؛ وجائزة بيرغامو، التي كان يمولها فاشي مثقف ومتسامح إلى حد ما ـ وهو بوتاي Bottai ـ فقد كان يحمي الفن من أجل الفن، ويهتم بتجارب الفن الطلائعي الذي منعته ألمانيا، لأنه في نظرها فن فاسد، ويشتمل على عناصر شيوعية، وهو بذلك مضاد kisch nibelungien الذي وحده كان مقبولا. لقد كان دانينزيو D'Annunzio شاعرا وطنيا في إيطاليا، وكان أنيقا ولو قدر له العيش في ألمانيا أو روسيا لأعدم في الحال. ولقد رقي إلى مرتبة شاعر النظام لوطنيته وعبادته للبطولة ـ وهي بطولة مشوبة بميوعة فرنسية.

ولنأخذ على سبيل المثال تيار المستقبلية. لقد كان من الممكن اعتباره مثالا «للفن المنحط»، كما كان الحال مع تيار التعبيرية والتكعيبية والسريالية. ولكن المستقبليين الإيطاليين الأوائل كانوا وطنيين، لقد شجعوا، لأسباب فنية، مشاركة إيطاليا في الحرب العالمية الأولى، واحتفوا بالسرعة والعنف

(20) Andrei Jdanov سياسي روسي (1886 ـ 1948) من أشد المتحمسين لستالين، وهو من صاغ مبادئ الواقعية الاشتراكية التي فرضت على الكتاب بالقوة باعتبارها النظرية الوحيدة الصحيحة. (المترجم)

والمخاطرة، وقد كانت مظاهرهم قريبة من العبادة الفاشية للشباب. ففي الفترة التي تماهت فيها الفاشية بالإمبراطورية الرومانية واكتشفت التقاليد القروية، عين فيها مارينيتي Marinetti[21] ـ الذي كان يدعو إلى سيارة أجمل من تمثال ساموتراك victoire de samothrace[22] ويريد، بكل الوسائل قتل «ضوء القمر» ـ عضوا في الأكاديمية الإيطالية التي كانت تتعامل مع ضوء القمر بكامل الاحترام.

أنصار كثيرون ومثقفون شيوعيون كثيرون تلقوا تربيتهم في «الجمعية الفاشية للجامعات»، وهي ناد كان يسعى إلى أن تصبح الجامعة مهد الثقافة الفاشية الجديدة. والحال أن هذه النوادي تحولت إلى ما يشبه الوكر الثقافي انتشرت فيه الأفكار الجديدة دون رقابة إيديولوجية واقعية، لا بفضل تسامح رجال الحزب، بل لأنه لم يكن بينهم من يستطيع مراقبة هذه الأفكار.

في السنوات العشرين هذه، وقفت الهرمسية[23] كرد فعل

---

(21) Philippo Marinetti كاتب إيطالي 1876 ـ 1944 من الذين ساندوا العقيدة الفاشية في إيطاليا بقيادة موسولوني رغم انتمائه إلى تيار المستقبلية (المترجم).

(22) - تمثال ضخم في معبد الآلهة وموجود في جزيرة ساموتراك اليونانية، وهي جزيرة في بحر إيجه. (المترجم)

(23) hermétisme يعود مفهوم الهرمسية (وليس الهرموسية herméneutique الدالة على النظرية التأويلية) إلى التراث اليوناني حيث كان هناك إله اسمه هرمس عرف بأنه إله الشباب والشيوخ وإله التجار واللصوص، ولقد رمزا لكل المتناقضات. ولقد صنفت ضمنه مجموعة من الأعمال الأدبية التي يقال إنها كانت مستوحاة من هرمس المثلث العظمة. وسيصبح دالا في نهاية القرن التاسع عشر على الأعمال التي كانت تنحو منحى رمزيا وغامضا (المترجم).

على الأسلوب الرنان للنظام؛ لقد سمح للشعراء ببلورة أساليب جديدة تعبر عن احتجاجاتهم الأدبية في برجهم العاجي. لقد كان تصور الهرمسيين مناقضا كلية لعبادة الفاشية للتفاؤل والبطولة. لقد كان النظام يسمح بهذا الانشقاق الضمني، الذي لم يكن له أي تأثير من الناحية الاجتماعية، لأنه لم يكن يهتم بما فيه الكفاية بهذه اللغة الغريبة.

وهذا لا يعني أن الفاشية الإيطالية كانت متسامحة. لقد وُضِع غرامشي[24] في السجن إلى أن مات، واغتيل ماتايي[25] والأخوة روسيلي[26]، وألغيت حرية الصحافة، وحُلت النقابات ونفي المنشقون السياسيون إلى جزر بعيدة، وأصبحت السلطة التشريعية مجرد وهم، أما التنفيذية (التي كانت تتحكم في القضاء والصحافة) فكانت تصدق مباشره على قوانين، منها قوانين الدفاع والعرق (لقد كانت مساندة إيطاليا للهولوكوست أكيدة). إن الأمر ليس كذلك، إن الصورة المتنافرة التي رسمتها لا علاقة لها بالتسامح: لقد كان الأمر يتعلق بتفكك سياسي وإيديولوجي. ومع ذلك، كان هذا التفكك منظما، كان خليطا

---

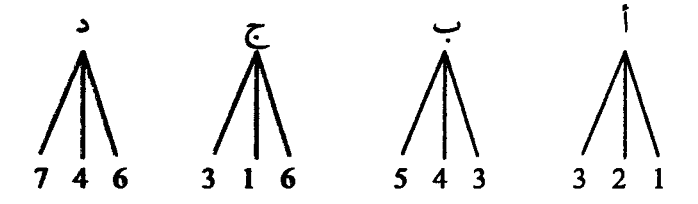
(24) Antonio Gramsci 1891-1937كاتب ومنظر سياسي إيطالي من المؤسسين للحزب الشيوعي في إيطاليا، زج به موسولوني في السجن، و بقي فيه حتى مات (المترجم).

(25) Giacomo Matteolli 1885-1924 برلماني عن الحزب الاشتراكي الإيطالي اغتالته عصابة فاشية (المترجم). .

(26) Carlo Rosselli سياسي لإيطالي وصحافي ومؤرخ اغتالته عصابة إيطالية مع أخيه نيلو Nello في 9 يونيو 1937 (المترجم)

مبنينا. لقد كانت الفاشية مفككة من الناحية الفلسفية، ولكنها كانت تحيل، من الناحية العاطفية، على مجموعة من الصور النمطية.

وأصل الآن إلى النقطة الثانية من أطروحتي. لقد كانت هناك نازية واحدة، ولا يمكن أن نسمي كتائبية فرانكو البالغة التشدد الكاثوليكي بالنازية، لأن النازية كانت ملحدة وغير موحدة ومناهضة للمسيحية. وعلى العكس من ذلك، بإمكاننا تصور فاشيات متعددة، دون أن يتغير اللعب. لقد كانت مقولة الفاشية تعرف عن اللعب ما كان يعرفه عنه فتغنشتاين[27]. يمكن للعب أن يكون منافسة أو لا يكون، يمكن أن يحتاج إلى شخص، كما يمكن أن يحتاج إلى عدة أشخاص، يمكن أن يشترط نوعا من النباهة الخاصة أو لا يشترطها على الإطلاق، يمكن أن يكون رهانا على قدر من المال أو يتم بدونه. إن اللعب هو سلسلة من الأنشطة المتنوعة التي تشهد فقط على وجود جو عائلي.



(27) Ludwig Josef Wittgenstein (1889 ـ 1951) فيلسوف ومنطقي بريطاني من أصل نمساوي، من أهم كتبه: investigations philosophique, Grammaire philosophique (المترجم)

فلنفترض أن هناك سلسلة من المجموعات السياسية. المجموعة الأولى تتميز 1 2 3، والمجموعة الثانية 3 4 5 وهكذا. إن المجموعة الثانية شبيهة بالمجموعة الأولى من حيث اشتراكهما في ميزة واحدة. أما المجموعة الثالثة فشبيهة بالثانية، والرابعة شبيهة بالثالثة للسبب نفسه. وعلينا أن نسجل أن المجموعة الثالثة شبيهة أيضا بالمجموعة الأولى. (يشتركان في العنصر 1 و3).

إن الحالة الجديرة بالاهتمام هي المجموعة الرابعة، فهي بطبيعة الحال، شبيهة بالثالثة والثانية دون أن يكون لها أي رابط مع المجموعة الأولى. ومع ذلك، ونظرا لوجود سلسلة لا متناهية من حالات التشابه التنازلي المتقلصة بين 1 و4، رابط وهمي بين 4 و1 نتيجة تعدية.

لقد تحولت الفاشية إلى مفهوم قابل للتكيف مع كل الوضعيات. فحتى في الحالة التي نحذف من النظام الفاشي هذا العنصر أو ذاك فسيكون من الممكن دائما التعرف عليه باعتباره كذلك. انزعوا عنه صفة الإمبريالية وستواجهون فرانكو وسالازار، وانزعوا عنه الاستعمار وستجدون أمامكم الفاشية البلقانية. أضيفوا إلى الفاشية الإيطالية مناهضة جذرية للرأسمالية (التي لم تشغل بال موسوليني أبدا) فستجدون عزراباوند. أضيفوا عبادة الأساطير السلتية والصوفية الغرالية (وكانت غريبة كلية عن الفاشية الرسمية) فستجدون أحد الجلادين الأكثر

احتراما، جوليوس إيفولا[28]. فعلى الرغم من هذا الخليط، يمكن مع ذلك إقامة لائحة من الخصائص النوعية لما يمكن أن أسميه الفاشية الأصلية، أي الفاشية البدائية الأبدية. من المستحيل تجميع هذه الخصائص في نظام واحد، لأن أكثرها يتناقض مع بعضه البعض وهي شبيهة بأشكال أخرى للاستبداد أو التعصب. ولكن يكفي أن تتحقق خاصية واحدة لكي نكون أمام سديم فاشي.

1 ـ الخاصية الأولى لفاشية أصلية هي عبادة التراث. إن النزعة التقليدية أقدم من الفاشية. ولم تكن ميزة خاصة بالفكر الكاثوليكي المضاد للثورة بعد الثورة الفرنسية، بل ولدت حوالي نهاية العصر الهليني، كرد فعل على العقلانية الإغريقية الكلاسيكية.

لقد كانت الشعوب في الحوض المتوسطي المنتمية إلى ديانات مختلفة (كان البانتيون الروماني يقبلها جميعها) تحلم بوحي نزل في فجر التاريخ الإنساني. لقد ظل هذا الوحي مختبئا لمدة طويلة في لغات نسيها الناس الآن، واستعادتها الهيروغليفة والرون السلتية والنصوص المقدسة التي يجهلها الناس وما زالت غريبة عن الديانات الأسيوية.

يجب أن تكون هذه الثقافة الجديدة تلفيقية. إن التلفيقية

---

(28) Julius Evola (1898 ـ 1974) مفكر إيطالي تقليدي من الذين ساندوا الحكم الفاشي في إيطاليا (المترجم).

ليست، كما يشير إلى ذلك القاموس، التأليف بين أشكال مختلفة من الديانات أو الممارسات. إن تأليفا من هذا النوع يجب أن يسمح بكل المتناقضات. فكل الرسالات الأصلية تحتوي على رُشَيْم من الحكمة، وعندما توهم بأنها تقول أشياء مختلفة أو متنافرة، فإن ذلك فقط لأن كل واحد يحيل، بطريقة مجازية، على حقيقة بدائية.

والخلاصة: لا يمكن أن يكون هناك تقدم في المعرفة. لقد قيلت المعرفة منذ قديم الزمان دفعة واحدة، ولا يمكننا سوى أن نستمر في تأويل رسالتها الغامضة ويكفي أن نراقب السجل الخاص بكل فاشية لكي نجد أنفسنا أمام المفكرين التقليديين الأساسيين. لقد كانت الغنوصية النازية تتغذى من عناصر تقليدية تلفيقية وسرية، لقد كان جوليوس إيفولا، وهو المصدر التنظيري الأساسي لليمين الإيطالي الجديد، يخلط الغرال[29] ببروتوكولات حكماء صهيون، والخمياء بالإمبراطورية الرومانية المقدسة. فاليمين الإيطالي وسع من لائحة أضاليله وجمع بين ميستر وغينون وغرامشي، لكي يبرهن على تفتحه، وهذا دليل مثير وتلفيقي.

فإذا أخذكم الفضول وتصفحتم أجنحة المكتبات الأمريكية التي تحمل عنوان «العصر الجديد»، فستجدون فيها القديس

(29) Graal كان يعين في القرون الوسطى مجموعة من القصائد الشعرية التي كان موضوعها رحلة الملك أرتور بحثا عن الكأس المقدس (المترجم).

أغستين نفسه الذي لم يكن في حدود علمي فاشيا. ولكن أن يُجمع بين القديس أغستين وستونهانج، فهذا يعتبر علامة على فاشية أصلية.

2 ـ إن النزعة التقليدية تقتضي رفض العالم الحديث. لقد كان الفاشيون، مثلهم مثل النازيين، يعشقون التكنولوجيا، في حين أن ذوي النزعة التقليدية يرفضونها عامة، فهي في تصورهم نقيض القيم الروحية التقليدية. ومع ذلك، فرغم أن النازية كانت فخورة بإنجازاتها الصناعية، فإن مدحها للحداثة لم يكن سوى مظهر سطحي لإيديولوجيا مبنية على الدم والأرض. لقد كان رفض العالم الحديث مستترا في إدانة نمط الحياة الرأسمالية، ولكنه كان يظهر خاصة في رفض روح 1789[30] (و روح 1776[31] بالتأكيد): نُظر إلى عصر الأنوار وعصر العقل باعتبارهما بداية الانحراف الحديث. وبهذا المعنى، فإن الفاشية الأصلية يمكن تحديدها باعتبارها لاعقلانية.

3 ـ إن اللاعقلانية مرتبطة أيضا بعبادة الفعل من أجل الفعل. إن الفعل جميل في ذاته. يجب إذن أن نقوم به قبل التفكير وبدونه. إن التفكير هو نوع من التهجين. وهكذا، فإن

---

(30) إشارة إلى الثورة الفرنسية التي أطاحت الحكم الملكي، وجاءت بالمبادئ الثلاثة «الحرية والإخاء والمساواة» (المترجم).

(31) إشارة إلى الحرب التي خاضها الأمريكية ضد الإنجليز من أجل الاستقلال وهي حرب استمرت من 1775 إلى 1788. وقد عقد مؤتمر في فيلادلفيا في 4 يوليوز 1776 أعلن فيه عن حقوق الإنسان في أمريكا (المترجم).

الثقافة مشكوك فيها دائما، لأننا نربطها دائما بموقف نقدي. فمن تصريح غوبلز («عندما أسمع كلمة ثقافة أخرج مسدسي») إلى التعابير المألوفة: مثقف وسخ، رأس بيضة، سنوب، متطرفو الجامعات، أوكار الشيوعيين، كان الحذر من عالم المثقفين دائما دليلا على فاشية أصلية. إن ما هو أساسي في التزام المثقفين الفاشيين الرسميين يكمن في اتهام الثقافة الحديثة والانتلجنسيا بتخليهما عن القيم التقليدية.

4 ـ لا يمكن لأي شكل من أشكال التلفيق أن يقبل النقد. إن العقل النقدي يقيم تمايزات، والتمييز علامة على الحداثة. وينظر العلماء، في الثقافة الحديثة، إلى الاختلاف باعتباره أداة من أدوات المعرفة. أما بالنسبة للفاشية الأصلية، فإن الاختلاف هو خيانة.

5 ـ إن الاختلاف هو بالإضافة إلى ذلك علامة على التنوع. أما الفاشية الأصلية فتؤمن بالإجماع وتبحث عنه عبر استغلال واستثمار الخوف من الاختلاف. فأول بيان أعلنته حركة فاشية كان ضد الأغراب. فالفاشية الأصلية هي إذن عنصرية.

6 ـ إن الفاشية الأصلية هي وليدة الكبت الفردي أو الاجتماعي. فلهذا السبب، فإن إحدى الخصائص المميزة للفاشيين التاريخيين هي نداء إلى الطبقات الوسطى المكبوتة، تلك التي همشتها الأزمة الاقتصادية أو الإذلال السياسي، يضاف إلى ذلك الرعب من الضغط الذي تمارسه مجموعات اجتماعية دونية. وفي الوقت الحاضر، حيث البروليتاريون

القدامى على وشك التحول إلى برجوازية صغيرة (وحيث أقصت البروليتاريا نفسها من المشهد السياسي)، فإن الفاشية تستقطب أتباعها من هذه الأغلبية الجديدة.

7 ـ أما أولئك الذين لا يملكون أية هوية اجتماعية، فإن الفاشية الأصلية تعدهم بامتياز واحد ـ امتياز يشترك فيه الجميع ـ تعلن لهم أنهم ولدوا في بلد واحد. إن مصدر النزعة الوطنية هو هذا بالضبط. وبالإضافة إلى ذلك، وبما أن الأعداء هم وحدهم من يمنح للأمة هوية، فإن مصدر السيكولوجيا الفاشية هو هوس المؤامرة، دولية إن أمكن. يجب أن يحس المريدون أنهم محاصرون. والوسيلة البسيطة من أجل الكشف عن المؤامرة يكمن في الدعوة إلى كراهية الآخر. ومع ذلك، يجب أن يكون مصدر المؤامرة الداخل أيضا. ولهذا السبب، فإن اليهود هم عادة الأهداف المفضلة، لأنهم يملكون امتياز وجودهم في الداخل والخارج في الوقت ذاته. لقد شكل كتاب بات روبارتسون «النظام العالمي الجديد» في الولايات المتحدة، آخر مثال على هوس المؤامرة هذا.

8 ـ يجب أن يشعر المريدون بالمهانة التي يمثلها غنى العدو وقوته. لقد علموني عندما كنت صغيرا أن الإنجليز «شعب يأكل خمس مرات في اليوم»: إنهم يأكلون أكثر من الفقير الإيطالي الذي يتميز عنهم بالقناعة. إن اليهود أغنياء ويتعاونون فيما بينهم بفضل وجود شبكة سرية للمساعدة المتبادلة. ومع ذلك، على المريدين أن يكونوا مقتنعين بقدرتهم

على هزم العدو. وهكذا، ومن خلال تحول لا متناهي لسجل بلاغي، فإن الأعداء هم أقوياء جدا وضعفاء جدا. محكوم على الفاشيين أن يخسروا حربهم، لأنهم غير قادرين، من الناحية المؤسساتية، على تقويم موضوعي لقوة العدو.

9 ـ لا وجود في تصور الفاشية الأصلية لصراع من أجل الحياة، فالحياة في تصورها صراع. إن النزعة السلمية هي إذن تواطؤ مع العدو. إنها نزعة سيئة، ذلك أن الحياة هي حرب دائمة. ومع ذلك، فإن هذا يحتوي على مركب أرامغيودون[32]: بما أن الأعداء يمكن أن يهزموا ويجب أن يهزموا، فيجب أن تكون هناك معركة نهائية بعدها ستستولي الحركة على العالم. إن هذا الحل النهائي يستدعي فترة من السلم، عصر ذهبي سيفند مبدأ الحرب الدائمة. لا وجود لأي زعيم فاشي استطاع أن يحل هذا التناقض.

10 ـ إن النخبوية هي مظهر نوعي للإيديولوجيا الرجعية، لأنها في عمقها أرستقراطية. وفي التاريخ، ارتبطت كل النزعات النخبوية الأرستقراطية وذات النزعة العسكرية باحتقار الضعفاء.

لا يمكن للفاشية الأصلية تجنب الدعوة إلى النخبوية

(32) Armgeddon كلمة مشتقة من العبرية، وقد وردت في «العهد الجديد» وتشير إلى جبل صغير في فلسطين، وهو رمز للمكان الذي ستتم فيه المعركة النهائية. ولذلك تدل في الاستعمال العادي على المعارك الكارثية ذات الطابع الكوني، وعلى المعركة النهائية التي سيأتي بعدها النصر النهائي. (المترجم)

الشعبية. كل مواطن ينتمي إلى أفضل شعب في العالم، وأعضاء الحزب هم أفضل المواطنين، بإمكان كل مواطن أن ينتمي إلى الحزب أو عليه القيام بذلك. ولكن لا يمكن أن يكون هناك الشرفاء دون أن يكون هناك العامة من الناس. إن الزعيم الذي يعرف أن سلطته لم تكن انتخابا، بل انتزعها بالقوة، يعرف أيضا أن القوة مبنية على ضعف الجماهير، إن الجماهير ضعيفة جدا لدرجة تستحق رجلا مهيمنا أو هي في حاجة إليه. وبما أن المجموعة منظمة بشكل تراتبي (وفق النموذج العسكري)، فإن كل زعيم يحتقر من يليه في الرتبة ومن يليه في الرتبة يحتقر الذي يليه. كل هذا يقوي الإحساس بنخبوية جماهيرية.

11 ـ ووفق هذا المنظور، كل مواطن يربى لكي يصبح بطلا. فإذا كان البطل في كل الأساطير هو كائن استثنائي، فإنه يشكل المعيار في الإيديولوجية الفاشية. إن تمجيد البطولة وثيق الارتباط بتمجيد الموت: وليس من باب الصدفة أن يكون شعار الكتائب هو «عاش الموت». إن الموت في نظر الإنسان العادي أمر سيء ولكن يجب مواجهته بكرامة؛ إنه بالنسبة للمؤمنين طريقة مؤلمة للوصول إلى السعادة الأخروية. أما البطل الفاشي، فإنه يتمنى الموت، باعتبارها أجمل هدية لحياة بطولية. إن البطل الفاشي يتعجل الموت. وهو ما يعني ضمنيا أن البطل، في عجلته تلك، يمكن أن يقتل ناسا كثيرين.

12 ـ وبما أن الحرب الدائمة والبطولة لعبتان من الصعب

ممارستهما على الدوام، فإن الفاشي يحول إرادة القوة عنده إلى قضايا جنسية. وهنا مصدر الفحولة (التي تستدعي احتقار النساء والإدانة اللامتسامحة للأخلاق الجنسية اللاامتثالية من العفاف إلى المثلية). وبما أن الجنس هو لعبة صعبة، فإن البطل الفاشي يلعب بالأسلحة، وهي بديل حقيقي للقضيب: إن مصدر هذه الألعاب الحربية فحولة دائمة.

13 ـ إن الفاشية تتأسس على شعبوية نوعية. إن المواطنين في الديمقراطيات يتمتعون بحقوق فردية ولكن مجموع المواطنين لا قيمة لهم إلا من زاوية كمية (نخضع لرأي الأغلبية). أما بالنسبة للفاشية الأصلية، فإن الأفراد، بصفتهم تلك، لا حقوق لهم، وينظر إلى الشعب باعتباره مزية، كيان موحد يعبر عن إرادة مشتركة. وبما أنه لا يمكن لأي كمّ من الكائنات الإنسانية أن يمتلك إرادة مشتركة، فإن الزعيم سيكون هو الصوت المعبر عن الجميع. إن المواطنين، وقد فقدوا سلطة الإنابة، لا يفعلون أي شيء، إنهم فقط مدعوون لممارسة لعبة الشعب، بمنطق الجزء مكان الكل. وعلى هذا الأساس، لا يشكل الشعب سوى وظيفة مسرحية. ومن أجل الحصول على مثال نموذجي للشعبوية النوعية، لسنا في حاجة إلى بيازا فانيزي أو ملعب نورانبورغ. إن مستقبلنا يتراءى من خلال شعبوية نوعية تلفزية أو أنترنيت، وحيث الجواب الانفعالي على فئة منتقاة من المواطنين يمكن أن تقدم وتقبل باعتبارها صوت الشعب. على الفاشية، وبسبب شعبويتها

النوعية، أن تواجه الحكومات البرلمانية «العفنة». فإحدى الجمل التي نطق بها موسوليني في البرلمان كانت هي: «كان بإمكاني أن أحول هذه القاعة الصماء والكئيبة إلى معسكر لأتباعي». وبالفعل، سرعان ما وجد ملجأ جيدا لأتباعه، وبعد ذلك بقليل ألغى البرلمان. فكلما شكك سياسي في البرلمان لأنه لا يمثل الشعب، نشتم رائحة الفاشية الأصلية.

14 ـ تتحدث الفاشية الأصلية النيوزبيك. والنيوزبيك، وهي لغة اخترعها أورويل في روايته 1984، باعتبارها لغة رسمية لإنغزوك، الاشتراكية الإنجليزية، ولكن عناصر من الفاشية الأصلية هي عناصر مشتركة مع كل أشكال الدكتاتوريات. لقد تأسست كل النصوص المدرسية، النازية أو الفاشية، على معجم فقير وتركيب بسيط، وذلك لتجنب أدوات التفكير المركب والنقدي. وهذا يعني أنه يجب أن نكون مستعدين للتعرف على أشكال أخرى من النيوزبيك، حتى في الحالة التي تتخذ فيها مظهرا بريئا كالبرامج الترفيهية الشعبية.

الآن وقد أشرت إلى الصور النمطية الممكنة للفاشية الأصلية، اسمحوا لي بالختم. في صبيحة يوم 27 يوليوز 1943، أعلن الراديو سقوط الفاشية والقبض على موسوليني. أرسلتني أمي لشراء الجريدة. ذهبت إلى أقرب كشك. وهناك رأيت جرائد كثيرة، ولكن أسماءها مختلفة. ولقد لاحظت، بالإضافة إلى ذلك، بعد أن تصفحت بسرعة عناوينها، أن كل جريدة تتحدث عن شيء مختلف. واشتريت جريدة كما اتفق

وقرأت رسالة مكتوبة في الصفحة الأولى، وقد وقعها خمسة أحزاب أو ستة، الديمقراطية المسيحية، الحزب الشيوعي، الحزب الاشتراكي، حزب العمل، والحزب اللبرالي. إلى حدود تلك الساعة لم أكن أعرف أن هناك حزبا آخر في إيطاليا غير الحزب الوطني الفاشي. واكتشفت أنه من الممكن أن تتعايش في بلادي أحزاب كثيرة. بل أكثر من ذلك: بما أنني كنت ولدا نبيها قلت في نفسي إن هذه الأحزاب لم تولد بين عشية وضحاها. وفهمت أنها كانت موجودة على شكل منظمات سرية.

لقد كانت الرسالة تحتفل بانتهاء الفاشية وعودة الحرية: حرية الكلام والصحافة والجمعيات السياسية. لقد قرأت هذه الكلمات، حرية، دكتاتورية - يا إلهي - لأول مرة في حياتي. وبفضل هذه الكلمات الجديدة ولدت باعتباري إنسانا غربيا حرا.

علينا أن نعمل كل ما في وسعنا لكي لا ننسى معنى هذه الكلمات. إن الفاشية الأصلية موجودة دائما بيننا، أحيانا على شكل لباس مدني. وسيكون الأمر مريحا جدا أن يتقدم شخص ما ويقف على الخشبة ليعلن للعالم: «أريد أن أفتح أوشويتز[33]، أريد أن تعود القمصان السوداء لتتجول في

(33) Auschuitz أكبر مركز للاعتقال في بولونيا على عهد الحكم النازي في ألمانيا، و قد وضع ليأوي اليهود والشيوعيين، يوجد في بولندا (المترجم).

الشوارع الإيطالية». واحسرتاه، إن الحياة ليست بهذه البساطة، إن الفاشية الأصلية قابلة لأن تعود من خلال أشكال بالغة البراءة. واجبنا أن نفضحها، أن ننبه الناس إلى كل أشكالها ـ دائما وفي أي جزء من العالم. سأترك الكلمة مرة ثانية لروزفيلت: «أتجرأ وأقول إذا توقفت الديمقراطية الأمريكية عن التطور كقوة حية، وكفت عن العمل ليل نهار، من خلال وسائل سلمية، على تحسين شروط عيش مواطنينا، فإن الفاشية ستنمو في بلادنا» (4 نوفمبر 1943). إن الحرية والتحرر هما واجب لا ينتهي أبدا. ذاك هو شعارنا: لا تنسوا.

واسمحوا لي أن أنهي كلمتي بشعر لفرانكو فورتيني:

على حافة الجسر
رؤوس المشنوقين
في ماء العين
لعاب المشنوقين

على بلاط السوق
أظافر المعدمين بالرصاص
على حشائش المرج الجافة
أسنان المعدمين بالرصاص
عض الهواء، وعض الحجر

لحمنا لم يعد لحم الإنسان

عض الهواء عض الحجر

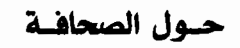
قلبنا لم يعد قلب الإنسان

ولكننا قرأنا في أعين الموتى

وعلى الأرض، الحرية، سنحققها

ولكن قبضت عليها أيدي الموتى

العدالة التي سنحققها.



حـول الصحافـة



السادة أعضاء مجلس الشيوخ

أود أن أتناول أمامكم بعض القضايا الخاصة بوضع الصحافة الإيطالية، وتحديدا علاقتها بعالم السياسة. ويحق لي القيام بذلك، ليس ضدا على ممثلي هذه الصحافة ولكن بحضورهم. ذلك أن ما أود قوله قد كتبته منذ الستينيات، ونشر الجزء الكبير منه في اليوميات والأسبوعيات الإيطالية. وهذا يعني أننا نعيش في بلد تتمتع فيه الصحافة بالحرية وغياب الأحكام المسبقة، وهي بذلك قادرة على أن تحاكم نفسها بنفسها.

إن وظيفة السلطة الرابعة تكمن في مراقبة وانتقاد السلطات التقليدية الثلاث الأخرى (وكذلك سلطة الاقتصاد والأحزاب والنقابات)، وهذا أمر ممكن في بلد حر، لأن نقده لا علاقة له بأية وظيفة قمعية: إن وسائل الإعلام لا يمكنها التأثير في الحياة السياسية لبلد ما إلا من خلال بلورة رأي عام. إلا أن السلطات التقليدية لا يمكنها مراقبة ونقد وسائل الإعلام إلا عبر هذه الوسائط، وإلا أصبح تدخلها عقابا، إما تنفيذيا وإما تشريعيا وإما قضائيا ـ وهو أمر لا يمكن أن يحدث إلا إذا خرجت الصحافة نفسها عن القانون أو قدمت وضعية فيها اختلال سياسي ومؤسساتي. ومع ذلك، فإن الوسائط ـ الصحافة

في المقام الأول ـ لا يمكنها أن تكون خارج النقد، إن النقد شرط من شروط السير السليم لمجتمع ديمقراطي تعرف فيه الصحافة كيف تحاسب نفسها وتعيد النظر فيها.

ومع ذلك، فإن هذا لا يكفي في غالب الأحيان. بل قد يكون الأمر على العكس من ذلك، فإعادة النظر هذه تعد حجة صلبة أو، بلغة قاسية، حالة لما يسميه ماركوز «التسامح القمعي»: فعندما تبرهن الصحافة على غياب الأحكام المسبقة الدالة على نقد ذاتي، فإنها لا تشعر أنها ملزمة بإصلاح نفسها. منذ ما يقارب العشرين سنة، طلب مني ليفيو زانيتي مقالا نقديا حول الأسبرسيو وقام بنشره في الجريدة نفسها. قد أكون متواضعا، ولكن إذا كان الأسبريسو قد أعاد النظر في نفسه، فليس ذلك نتيجة مقالي، بل كان ذلك نتيجة طبيعية لتطور الأشياء.

ونحن نصوغ هذه الشكوى، فإنني لا أقصد من ذلك انتقاد الصحافة في علاقتها بعالم السياسة، كما لو أن هذا العالم هو ضحية بريئة لتجاوزات الصحافة. أعتقد أنهما يتقاسمان مسؤولية الوضعية التي أحاول تشخيصها.

أضف إلى ذلك، لن أكون من هؤلاء البدويين الذين يعتقدون أن الأشياء السيئة لا تحدث إلا في بلادنا. لن أرتكب نفس أخطاء صحافتنا، المتصفة بكره الأجنبي، التي عندما تحيل على يومية أجنبية تربطها دائما بصفة «واسعة التأثير». وبهذه النبرة تتكلم عن «نيويورك بوست الكبير التأثير»، جاهلة

أن هذه الجريدة تافهة ومن الدرجة الثالثة يجد المرء كثيرا من الحياء وهو يقرؤها في أوماها أونبراسكا. فالكثير من الأمراض التي تشكو منها الصحافة الإيطالية هي نفسها عند صحافة العالم أجمع. ومع ذلك لن أحيل بصفة سلبية على بلدان أخرى، إلا في حالة الضرورة القصوى، ذلك «أن هناك خطأين لا يمكن أن يشكلا الحقيقة». ولن أتخذها مثالا إلا عندما يبدو لي أن دروسهما يمكن أن تكون إيجابية بالنسبة لنا نحن.

وهناك ملاحظة أخيرة: إن مرجعيتي ستكون هي الصحف التالية: la republica وIl corriera della sera وl'Espresso وذلك من باب الدقة في الملاحظات. والأمر يتعلق في واقع الأمر بثلاثة إصدارات كنت ومازلت أحد كتابها، لذلك، فإن انتقاداتي لا تستند إلى مواقف مسبقة أو مستوحاة من نية سيئة. ومع ذلك، تتعلق القضايا التي سأتناولها بالصحافة الإيطالية كلها.

سجال الستينيات والسبعينيات

انصب السجال في الستينيات والسبعينيات على طبيعة الصحافة ووظيفتها مركزا على موضوعين: أ ـ الفرق بين الخبر والتعليق، وهو ما يعني دعوة صريحة إلى الموضوعية؛ ب ـ الجرائد هي أدوات للسلطة، تديرها أحزاب أو مجموعات اقتصادية، وتستعمل لغة مسننة عن قصد، ذلك أن وظيفتها الحقيقية ليس إخبار الناس، بل بعث رسائل مسننة إلى لوبيات السلطة، ولن يكون القراء سوى وسيلة. إن اللغة السياسية

مستوحاة من المبادئ نفسها، ولقد ظلت العبارة الشهيرة «الإجماع الموازي» في أدبيات وسائل الإعلام رمزا لهذه اللغة التي لا يفهمها سوى أقلية موجودة في ردهات البرلمان، أما الشعب فلا يفهم منها أي شيء.

وكما سنرى، فإن هذين الموضوعين رديئان إجمالا. فمن جهة، كان هناك سجال عريض حول الموضوعية، والكثير منا كان يعتقد ألا وجود لخبر موضوعي على الإطلاق عدا النشرة الجوية. وحتى في الحالة التي يتم فيها الفصل الدقيق بين الخبر والتعليق، فإن اختيار الخبر في ذاته وطريقة تقديمه يشكلان في ذاتهما حكما ضمنيا. ولقد فرض في العشريات الأخيرة أسلوب الثيمية الشهير: تخصيص صفحة واحدة لأخبار من الطبيعة نفسها. فلنأخذ علي سبيل المثال الصفحة 17 من la republica ليوم الأحد 22 يناير. أربع مقالات: «بريسيا. ولدت رضيعها وقتلته»؛ «روما. فتاة في الرابعة تركت وحدها في المنزل، كانت تلعب على حافة الشرفة، وأُدخل الأب السجن»؛ «روما. أصبح من الممكن وضع الحمل في المستشفى حتى لو لم نكن نود الاحتفاظ بالرضيع». «تريفيس. أم مطلقة، لا تريد أن تقوم بدور الأمومة».

وكما تلاحظون، فإن موضوع الثيمية هو الطفولة المتخلى عنها. بقي أن نعرف هل يتعلق الأمر بقضية راهنة خاصة بهذه المرحلة؟ فهل نملك كل المعلومات حول هذه الحالات؟ فلو كان هناك أربع حالات فقط، فلن تكون للإحصائيات أية قيمة،

ولكن الثيمية تضع هذه القصة فيما كانت تسميه البلاغة القضائية والاستشارية التقليدية، المثل: حالة واحدة يمكن أن نستنتج منها قاعدة (أو نوحي بإمكانية ذلك). فلو لم يكن هناك سوى أربع حالات، فإن الجريدة توحي بأن هناك عددا أكبر من هذا، ولو لم يكن العدد أكبر لما نشرته الجريدة. إن الثيمية لا تقدم لنا أربع قصص: إنها تعبر عن رأي موجه حول وضعية الطفولة، وذلك في استقلال عن إرادة رئيس التحرير الذي قد يكون اختار في آخر لحظة هذا الشكل التقديمي، لأنه لم يكن يعرف ماذا سيضع في الصفحة 17 من الجريدة. ومن هنا لا أود التأكيد أن تقنية الثيمية هي تقنية خاطئة وخطيرة: أقول فقط إنها تكشف لنا كيف يمكن أن نعبر عن آراء من خلال تقديم أخبار بالغة الموضوعية.

أما اللغة المسننة فقد تخلت عنها صحافتنا، لأن لغة السياسيين تغيرت بدورها: فإذا كان السياسي قديما يكتب على الورقة الموضوعة أمام الميكرو جملا غامضة ومصوغة بطريقة جيدة، فلا أحد الآن يتردد في التأكيد صراحة، أن رفيق دفعته كان خائنا، أو التعبير عن إعجابه الشديد بالميزات القذفية لعضوه التناسلي. إن الصحافة تستعمل لغة في متناول تلك الكتلة من الناس التي تسميها اليوم: «الناس الحقيقيون»، ولكنها تعتقد أن هؤلاء يتكلمون من خلال جمل مسكوكة. وها هي الجمل المسكوكة ـ استعمل بالتقسيط المعلومات التي جمعها طلبتي لمدة شهر في الصحافة الإيطالية ـ المقتطفة من

مقال واحد ل corrire ل 11 يناير 1995 : »ما دامت هناك حياة، هناك أمل»، «وجد نفسه أمام حائط»، «ديني dini وعَد الدموع والدم»، «إن الكيرينال مستعد للحرب»، «اطردوا الطبيعي، فسيعود بسرعة»، «امنحوا الزمن زمنا»، «أمام الحكومة طريقا يجب أن تقطعه»، «لقد خسرنا معركة ولم نخسر الحرب»، «نحن في مطب إلى العنق». وفي la republica ل 28 ديسمير 1994 نعثر على: «يجب أن نحافظ عل المعزة والكرنب»، «من يعانق كثيرا لا يحتضن جيدا»، «فليحمني الله من أصدقائي»، «لولب الحكومة»، «فينينسيت ينزل من جديد إلى الساحة»، «لا يمكن أن نهيئ وجبة بالبيض دون تكسير البيض»، «من الأفضل أن نتوجه إلى الله لا إلى أوليائه»، »من الصعب الفصل بين الحبوب والكرفة»، «لقد غيرت الرياح من اتجاهها»، «إن التلفزيون يأخذ حصة الأسد ولا يترك لنا سوى الفتات»، «فلنعد إلى جادة الصواب»، «مؤشر الاستماع في أدنى مستوياته»، «الإمساك بخيط الحكاية»، »فتح العينين»، «يجب وضع العين على حركات السوق»، «لم يخرج منها سالما»، «سل شوكة مؤلمة من القدم»، «الاستعداد للحرب». إن الأمر لا يتعلق بجريدة بل بموسوعة. علينا أن نتساءل هل هذه الكليشيهات شفافة وشبيهة في ذلك بـ «الإجماع الموازي» الشهير الذي فهمت الألوية الحمراء مضمونه جيدا، وتصرفت وفق ذلك.

يجب أن نسجل أن هذه الجمل الجاهزة هي أمر جيد في نظر «الناس الحقيقيين»، إنها في 50 في المائة منها من صنع

الصحافيين والباقي من تصريحات البرلمانيين. وها أنتم ترون ـ لكي نستعمل جملة جاهزة، «فقد ضاقت الدائرة» لنكتشف هنا وجود تحالف شيطاني لا نعرف داخله من هو الفاسد ومن هو المفسد.

والحاصل، لقد انتهى السجال القديم حول الموضوعية واللغة المسننة. لقد ظهرت للوجود مشاكل أخرى. فما هي هذه المشاكل وكيف خرجت إلى الوجود؟

اليومية تتحول إلى اسبوعية

لم تكن الجرائد في الستينيات تشكو من منافسة التلفزيون. ولقد كانت لأشيل كومبنيل Achille Campanile فكرة رائعة أعلن عنها في ندوة حول التلفزيون عقدت في غروسيتو في سبتمبر 1962 : قديما كانت الصحف هي أول من يعطي الأخبار، ثم تأتي بعد ذلك الإصدارات الأخرى لتعمق القضايا. لقد كانت اليومية تلغراما ينتهي بـ: «انظر ما يلي». إلا أن الأمر تغير بعد ذلك، ففي سنة 1962 كان التلفزيون يعلن عن الخبر التلغرافي في نشرة الثامنة مساء. وفي الصباح تعلن اليوميات عن الخبر نفسه. إن الأمر يتعلق برسالة تنتهي بـ: «انظر ما يلي، أو ربما ما سبق».

لماذا لم ينتبه إلى هذه الوضعية سوى عبقري من طينة كومبنيل؟ لأن عدد التلفزيونات لم يكن يتجاوز القناتين وكانتا تابعتين للحكومة، ولم يكن الناس يصدقونهما (وكانوا كذلك فعلا). لقد كانت الصحافة تقول أكثر من ذلك وبطريقة أقل

خطورة. يولد الممثلون في السينما أو في الكاباري ولكنهم لا يصلون دائما إلى التلفزيون. أما التواصل السياسي فكان يتم في الساحات العامة وجها لوجه، أو من خلال الملصقات الحائطية: ولقد أظهرت دراسة حول المواجهات التلفزية في الخمسينيات من خلال تحليل الجرائد السياسية، أن ممثل الحزب الشيوعي كان يقول من أجل التواصل مع البسطاء من المتفرجين، نفس ما كان يقترحه ممثل الديمقراطية المسيحية، أي أن الاختلافات تنمحي، فالملك كان يريد أن يظهر بشكل محايد ومطمئن. وعليه، فإن السجال والصراع السياسي كانا يتمان في مكان آخر، وبالأساس في الصحافة.

ثم كانت هناك القفزة الكمية ـ لقد تضاعف عدد التلفزات ـ ثم القفزة الكيفية ـ فداخل القنوات الحكومية ذاتها كان هناك اختلاف في التوجهات السياسية. فالهزلي والنقاشات الحادة وصناعة السبق الصحفي اجتاحت التلفزة وتجاوزت حدود الجنس ذاته، إلى درجة أن بعض برامج الساعة الثامنة كانت أكثر جرأة من الأغلفة الرهبانية لـ l'esspresso أو panorama التي لم تكن تتجاوز حدود المؤخرة. وفي بداية الستينيات أيضا، كنت أنشر عمودا حول البرامج الفرجوية الأمريكية، باعتبارها أحد الفضاءات للحوار المدني والروحي، وكان يشد انتباه المتفرجين الذين يتابعونه إلى ساعة متأخرة من الليل. وأتذكر أنني اقترحت على التلفزة الإيطالية القيام بذلك أيضا. وبدأت هذه البرامج تظهر شيئا فشيئا في التلفزات الإيطالية التي تحولت

إلى فضاء للقاءات عنيفة وصل حد العنف الجسدي أحيانا، إنها مدرسة للغة بدون حد وسيط (ولكي أكون صادقا، فإن هذا التطور حصل أيضا في برامج الفرجة في بلدان أخرى).

وبما أن التلفزة أصبحت هي المصدر الأول للخبر، فلم يعد أمام الصحافة اليومية سوى سبيلين: سأتحدث عن السبيل الأول فيما بعد (وأكتفي بتحديده الآن بـ «الاهتمام الموسع»)، ولكنني أستطيع التأكيد أن الجرائد اتبعت في جزء كبير منها السبيل الثاني: لقد تحولت إلى أسبوعيات. أصبحت اليومية تقترب أكثر فأكثر من الأسبوعية، فخصصت حيزا كبيرا للفرجة والوقائع الاجتماعية والتقارير الخاصة بالحياة السياسية والأعمال. ولقد نتجت عن هذا التحول أزمة عند الأسبوعيات الراقية ـ من panorama إلى epoca ومن l'europeo إلى l'espresso: ولم يعد أمام الأسبوعية سوى حلين، إما أن تصبح شهرية (ولكن هناك شهريات متخصصة في الشراع والساعات والمطبخ والحواسيب ولها جمهور وفي وسوق مستقرة)؛ وإما احتلال موقع «صحافة الرصيف» الذي كان من اختصاص الأسبوعيات من الدرجة المتوسطة وما يزال، من قبيل gente أو oggi التي تتلهف على أخبار الأعراس الأميرية أو من الدرجة السفلى novella 2000, stop، أو eva Express وهي مخصصة للباحثين عن أخبار الخيانات الزوجية والنهود العارية في حميمية الفضاءات الراقية.

ومع ذلك، فإن الأسبوعيات الراقية لا يمكنها أن تحذو حذو مثيلاتها المتوسطة أو الهابطة إلا في الصفحات الأخيرة ـ وفي

هذه الصفحات بالإمكان البحث عن النهود العارية واللقاءات الغرامية والزواج. ولكنها بذلك ستفقد طبيعة جمهورها، فكلما اقتربت الأسبوعية الراقية من الرخيصة أو المتوسطة، اكتسبت جمهورا ليس جمهورها الطبيعي، ولن تستطيع بعد ذلك التعرف على الجمهور الذي تتحدث إليه، وهنا بداية الأزمة. ستزيد الكميات المسحوبة ولكنها ستفقد هويتها. وبالإضافة إلى ذلك، ستطلق رصاصة الرحمة على الملحقات الأسبوعية لليوميات.

هناك حل واحد: اتباع نهج المجلات التي تتوجه، كما في الولايات المتحدة، إلى شريحة راقية من القراء، مثل نيويوركي الذي يقدم في الوقت ذاته لائحة المسرحيات وبعض الشرائط المصورة الراقية وأنطولوجيات مختصرة، ويبيح لنفسه نشر مقال من خمسين صفحة حول حياة سيدة عظيمة تنتمي إلى عالم النشر هي هيلين وولف. أو اتباع سبيل تايم أو نيوزويك اللتين لا تتحرجان في أن تكونا أسبوعيتين تتحدثان عن أحداث نشرتها اليوميات والتلفزة، ولكنهما تقدمان مختصرات أساسية حولها أو ملفات لتعميقها بأقلام كتاب مختلفين، كل ملف يحتاج إلى شهور من العمل والبرمجة، بالإضافة إلى توثيق مدقق بحيث نادرا ما تنشر هذه الأسبوعيات رسائل تكذب وقائع منشورة. ومن جهة ثانية، فإن مقالا في تصور نيويوركي يتم استكتابه قبل نشره بأشهر، وإذا اتضح أنه متجاوز، فإن المؤلف يتقاضى تعويضاته، ويرمى المقال في سلة المهملات. إن هذا النوع من الأسبوعيات باهظ الثمن، ولا يمكن أن يستمر في الوجود إلا

في سوق ناطقة بالإنجليزية، لا في سوق ضيق كالسوق الإيطالية حيث نسبة القراء قليلة جدا.

ولهذه الأسباب مجتمعة تضطر الأسبوعية اقتفاء أثر اليومية، وكل واحدة منهما تحاول تجاوز الأخرى والاستيلاء على قرائها. وهذا ما يفسر لماذا توقف l'eropeo الشهير، ولماذا تبحث Epoca دون جدوى عن بديل من خلال حملات تلفزية، ولماذا يجاهد كل من l'espresso و panorama لكي يختلفا عن بعضهما البعض: إنهما يقومان بذلك ولكن لا يكاد القراء ينتبهون للأمر. ألتقي أحيانا ببعض معارفي (وهم مثقفون) يثنون على عمودي في panorama[1] ويؤكدون لي بنوع من التملق أنهم لا يشترون سوى panorama ولا شيء سواها فقط لقراءة هذا العمود.

إيديولوجية الفرجة

وماذا عن اليوميات؟ تضطر اليومية، من أجل التحول إلى أسبوعية، إلى مضاعفة صفحاتها، وللقيام بذلك فإنها تبحث عن الإشهار، ولكي تحصل على المزيد من الإشهار تضاعف من جديد من عدد الصفحات وتضيف ملحقات، ولملء الصفحات المضافة يجب أن تحكي شيئا ما، ومن أجل هذه الحكاية يجب أن تتجاوز الخبر البسيط (وهو خبر سبق أن

---

(1) لأمبيرتو إيكو عمود نصف شهري في L'Espresso بعنوان La Bustina di minerva ترجمت بعض مواده إلى الفرنسية تحت عنوان Paris 10/18 1996, Pastiches et postiches و Comment voyager avec un saumon, Paris, Grasset,.1998.

تحدثت عنه التلفزة)، وبهذا تقترب أكثر فأكثر من الأسبوعية، وتضطر لخلق أخبار، أو تحول ما ليس خبرا إلى خبر.

وهناك مثال على ذلك. منذ فترة قصيرة تلقيت جائزة في Grinzane وقدمني صديقي وزميلي جاني فاتيمو. والمتخصصون في الفلسفة يعرفون أن مواقفي تختلف عن مواقف فاتيمو، ومع ذلك يجمع بيننا ود عميق. ولا يعرف الكثيرون أننا كنا أصدقاء منذ الطفولة، ونحب أحيانا أن نمازح بعضنا البعض كلما سنحت فرصة لذلك. وبهذه المناسبة اختار فاتيمو سبيل التشارك، وقدمني بطريقة فيها الكثير من الود والروحية، كان ردي عليها مازحا مؤكدا على عبارات فيها لمزات ومفارقات دالة على خلافاتنا الأبدية. وفي اليوم الموالي، خصصت إحدى جرائدنا صفحتها الثقافية كلها لمواجهة Grinzane التي أعلنت على شرخ درامي جديد وغير منتظر داخل الفلسفة الإيطالية. لقد كان صاحب المقال يعرف أن الأمر لا يتعلق بخبر، ولو خبر ثقافي. لقد اختلق قضية لم توجد قط. وأترك لكم المجال لكي تبحثوا عن شبيه لهذه القضية في الميدان السياسي. ولكن المثال الثقافي له أهمية خاصة: لقد كان على الجريدة أن تبني قضية لتملأ صفحاتها المخصصة للثقافة والمنوعات ووقائع المجتمع التي تهيمن عليها إيديولوجية الفرجة.

ولنأخذ حالتي le corriere della sera (44 صفحة) و la republica (54 صفحة) ليوم 23 يناير 1995 مثالين على ذلك. نظرا لكثافة وحجم التبوغرافيا في corrire، فإن الصحيفتين من

حجم واحد. إن يوم الاثنين هو يوم صعب، فليست هناك أخبارا سياسية واقتصادية جديدة، هناك الرياضة فقط. وتصادف أن كانت إيطاليا في ذلك اليوم في أزمة حكومية، وخصصت يوميتان مقالاتهما الأساسية للمواجهة التي جمعت بين ديني وبيرلوسكوني. مذبحة في إسرائيل «يوم أشويتز» يحتل الجزء الأكبر من الصفحة الأولى، ويضاف إليه قضية أندريوتي، وفي corrire هناك موت روز كينيدي. وفي الأخير هناك يوميات الشيشان. فكيف ستغطى الصفحات المتبقية؟ لقد خصصت الجريدتان بالتتابع 7 و4 صفحات للحوادث التي وقعت في المدينة التي تصدر فيهما الجريدتان، 14 و7 للرياضة، و2 و3 صفحات للثقافة، و2 و5 للاقتصاد و8 و9 للمجتمع والمسرح والتلفزة. وفي الحالتين معا خصصت 15 صفحة من أصل 32 صفحة، لمقالات أسبوعية.

ولنأخذ المثال الآخر الذي يقدمه نيويورك تايمز لليوم نفسه. فمن 53 صفحة 16 للرياضة، 10 لقضايا العاصمة، 10 للاقتصاد. وبقيت 16 صفحة. في أمريكا لا يعيشون أزمة، وواشنطن لا تكتسي أهمية خاصة بحيث إن الصفحات الخمس ل national reporter تهتم بالقضايا الداخلية. وبعد الحديث عن المذبحة التي وقعت في إسرائيل، سنجد على الأقل عشر مقالات حول البيرو وهايتي واللاجئين الكوبيين ورواندا والبوسنة والجزائر، ومناظرة دولية حول الفقر، واليابان بعد الزلزال وقضية المونسنيور غايو. وبعد ذلك هناك

صفحتان مخصصتان للتعاليق والتحاليل السياسية.

إن الجريدتين الإيطاليتين لا تتحدثان عن البيرو وهايتي وكوبا ورواندا. فلنفترض أن الدول الثلاث توجد ضمن دائرة اهتمام الأمريكيين أكثر من الأوروبيين، ومع ذلك، فإن هناك ثيمات تنتمي إلى السياسة الدولية لم تعرها الصحافة الإيطالية أي اهتمام، وذلك للإفاضة في الحديث عن المسرح والتلفزة. أما نيويورك تايمز، ولأن اليوم يوم اثنين، فقد خصصت صفحتين للنشاط الاقتصادي المرتبط بالإعلام، دون أن يكون ذلك استباقا أو تلصصا على حياة رجالات المسرح، بل يتعلق الأمر بتحاليل اقتصادية حول اقتصاديات الفرجة.

اليومية والتلفزة

لقد أصبحت الصحافة الإيطالية اليوم خاضعة للتلفزة. فلا نعثر في العالم كله على صحافة تجعل الخبر التلفزي في صفحتها الأولى. إلا إذا كان كلينتون أو ميتران قد ألقيا خطابا متلفزا، أو تم التخلي عن خدمات المدير العام لقناة وطنية.

فلا تقولوا لي علينا في جميع الحالات أن نملأ المساحات البيضاء. فلنأخذ نيويورك تايمز ليوم الأحد 22 يناير مثالا على ذلك. هناك في المجموع 569[2] صفحة بما في ذلك الصفحات المخصصة للإشهار، وأخبار الكتب وأسبوعية المسرح والسفر

(2) ورد في النص الفرنسي، فهل هناك جريدة تحتوي على كل هذا العدد من الصفحات (المترجم)

والسيارات الخ. ولنبحث عن المكان الذي يتم فيه الحديث عن التلفزيون ـ وهو آلة منزلية لها موقع خاص في مخيلة الأمريكيين. يتم ذلك في الصفحة 32 في الملحق الخاص بالفنون والفرجة، ويتعلق الأمر بدراسة حول المسبقات العرقية في البرامج، وبعرض طويل يهم استطلاعا حول البراكين. ثم هناك خانة للبرامج بطبيعة الحال، ولكن موضوع التلفزيون لا وجود له حتى في ملحق المنوعات وأحداث المجتمع. القول إن علينا أن نتحدث عن التلفزيون من أجل ملء الفراغ وإثارة اهتمام القارئ ليس صحيحا. إن الأمر يتعلق باختيار لا بضرورة. ففي اليوم نفسه، تحدثت الصحافة الإيطالية بإسهاب عن برنامج قدمه chiambretti[3] (الأمر يتعلق في واقع الأمر بإشهار مجاني)، الخبر الرئيس فيه هو أن المنشط حاول الدخول بكاميراته إلى قاعة الدرس في الجامعة حيث كنت ألقي محاضرة وقد منعته من ذلك، احتراما للمكان والوظيفة. فإذا كان الأمر يتعلق هنا حقا بخبر(قد تشكل بعض الأماكن التي ظلت لحد الآن منيعة على التلفزة خبرا)، فإن هذا الخبر لا يستحق أكثر من أربعة أسطر من مقالة لإرضاء الفضوليين.

فماذا سيحدث لو كان رجل سياسي في يده الكاميرا هو الذي قرع باب هذه القاعة، ومنعته من الدخول؟ فهل سيكون في الصفحة الأولى في اليوم الموالي دون أن يظهر في التلفزيون؟ إن عالم السياسة هو ما يحدد في إيطاليا أجندة

(3) منشط لبرنامج تلفزي ترفيهي ساخر واستفزازي (المترجم)

الأولويات الصحفية من خلال تأكيد شيء ما في التلفزة (أو فقط يعلن أنه سيؤكد)، والصحافة لا تتحدث في اليوم الموالي عما حدث في الماضي، بل عما قيل أو عما يمكن أن يكون قد قيل في التلفزة. بل هناك ما هو أعظم، فلو تعلق الأمر بهذا فقط لهان الأمر، ذلك أن جملة صغيرة حاسمة على لسان سياسي قد تقوم مقام بلاغ صحفي. ولكن ما يحتل الصفحة الأولى الآن عندنا هناك، من بين الأخبار السياسية، الصفعات التي تبادلها داغوستينو وسغاربي[4] أثناء برنامج تلفزي صاخب.

فنحن دون شك أكثر من أي بلد آخر تختلط فيه الحياة السياسية بالحياة التلفزية، وعلى الصحافة المكتوبة أن تهتم بهذا الترابط. لقد نبهني أحد الأصدقاء الأجانب أن الجرائد الإيطالية وحدها قادرة على القيام بما يلي: الأحد 29 يناير، نشر في الصفحة الأولى والسابعة من la republica وفي الصفحة الخامسة من corriere على أعمدة متعددة التصريح التاريخي لشيابريتي: «أنا لن أتنازل». (وهذا فقط لأن أحد منافسيه سانتورو[5] استفزه في اليوم السابق). إن القرار التاريخي لمحترف كوميديا لا يمكن أن يشكل خبرا يحتل الصفحة الأولى، خاصة إذا كان هذا الكوميدي لم يقرر التوقف بل مواصلة برنامجه. إذا كان الأمر

---

(4) شخصيتان استفزازيتان من المشهد الإعلامي، الأول منشط تلفزي وساخر، أما الثاني فهو ناقد فني تخصص في السجالات التلفزية (وقد انتخب برلمانيا بفضل ميزاته تلك).

(5) هو الآخر منشط تلفزي في قناة منافسة.

يتعلق بالخبر التالي «الإنسان هو الذي يعض الكلب وليس العكس»، فإننا سنكون أمام حالة لم يعض الكلب فيها أحدا. ومع ذلك، فنحن نعلم جميعا أن النقاش الذي شارك فيه أنزو بياجي[6] أيضا أحدث انزعاجا، فقد كان الأمر يتعلق بسجال من طبيعة سياسية صريحة. علينا القول إن الصحافة كانت مضطرة لوضعها في الصفحة الأولى، وذلك ليس خطأها، بل هو خطأ الوضع الإيطالي. ومع ذلك، يمكن أن أجازف وأؤكد إذا كانت الوضعية السياسية هي ما هي عليه، فإن للصحافة يدا في ذلك.

منذ فترة طويلة فرضت الصحافة، من أجل جذب القراء، ثيمة التلفزة باعتبارها فضاء سياسيا مميزا من خلال دعاية مكثفة لغريمها الطبيعي. ولقد استخلص السياسيون العبرة: لقد اختاروا التلفزة وتبنوا لغتها وطريقتها في العمل، واثقين أنها هي الوسيلة الوحيدة بالنسبة لهم من أجل إثارة اهتمام الصحافة المكتوبة.

لقد قدمت الصحافة للفرجة إشهارا زائدا. فقد كان واضحا أن السياسيين يبحثون عن إثارة الاهتمام حولهم من خلال إحضار تشيتشولينا[7] cicciolina إلى البرلمان. وحالة هذه السيدة حالة نوعية، فالتلفزة، بحياء حدسي، لم تخصص لها الفضاء الذي منحته إياها بسرعة الصحافة المكتوبة.

---

(6) صحافي سياسي مشهور.

(7) siccolina واسمها الكامل هو Ilona Anna Staller إيطالية من أصل هنغاري، عرفت بأفلامها البورنوغرافية، انتخبت في البرلمان الإيطالي سنة 1987 تحت راية الحزب الراديكالي.

بينما كانت الصحافة في السابق تابعة للتلفزة في أجندتها، فإنها تحاول الآن منافستها في أسلوبها. فالطريقة الأكثر خصوصية في تسليم خبر ما ـ خبر سياسي أو أدبي أو علمي ـ هي الحوار. ذلك أن الحوار أصبح وسيلة لا يمكن تجاوزها في التلفزة حيث لا يمكن الحديث عن شخص دون نشر صورته، ولكنها على العكس من ذلك، وسيلة لم تستعملها الصحافة المكتوبة إلا قليلا. فأن تحاور شخصا ما معناه أن تمنحه حيزا لكي يقول ما يود قوله. ولفهم ذلك نأخذ حالة المؤلف الذي يكتب كتابا. فالقارئ ينتظر من الصحافة حكما وتوجيها ويثق في رأي ناقد معروف أو في جدية الجهة الناشرة. ولكن الأمر تغير الآن، فالجريدة تعتبر عدم حصولها على حوار من المؤلف هزيمة لها. والحال أننا يجب أن نتساءل عن فحوى الحوار، المصيبة أن الأمر يتعلق بدعاية ذاتية. فنادرا ما يصرح كاتب ما أنه كتب كتابا رديئا (وهي أيضا حالة كل البلدان الأخرى). إنها مناسبة للقيام بابتزاز ضمني: «ليس هناك حوار، ليس هناك عرض عن الكتاب»، ولكن عادة ما تنسى الجريدة الشق الثاني، عندما تحصل على الحوار. والنتيجة التحايل على القارئ. لقد سبق الإشهار النقد أو حل محله، وعادة لا يشير الناقد إلى الكتاب عندما ينتهي من الكتابة، ولكنه يشير إلى ما قاله الكاتب في حواراته.

وهذا ما يجعل حوار رجل سياسي حوارا بالغ الأهمية: إما أن هذا الحوار هو نتيجة رغبة السياسي نفسه الذي يريد أن يستعمل

الجريدة كأداة، والجريدة هي التي تملك الحق في تقدير هذه الرغبة. الرغبة، وإما نتيجة الجريدة التي تريد تعميق موقف سياسي ما. إن حوارا جديا يتطلب وقتا وعلى المحاوَر (كما يحدث في العالم أجمع تقريبا) أن يعيد قراءة أجوبته التي يشار إليها بين مزدوجين من أجل تفادي سوء الفهم والتكذيب. تنشر الجرائد حاليا عشرات الحوارات يوميا هي ذاتها في كل الجرائد. ولكن، ومن أجل القضاء على التنافس، يجب على حوار هذه الجريدة أن يكون مميزا عن حوارات الجرائد الأخرى. إن اللعبة تكمن إذن في الدفع بالمحاوَر بجميع الوسائل إلى أن يدلي بشيء لم يقله من قبل، وهو ما سيقود ضمنيا إلى انفجار فضيحة ما.

فهل يُعتبر السياسي، المستعد في اليوم الموالي لتكذيب ما نسب إليه، ضحية الصحافة؟ هل يجب أن نسأله: ولكن لماذا دخلت في هذه اللعبة عوض أن تتبنى الموقف الفعال: لا تعليق؟ لقد اختار أمبيرتو بوسي في أكتوبر الماضي هذا الموقف عندما منع عن برلمانييه التحدث إلى الصحافيين. فهل هو اختيار خاسر لأنه عرض نفسه لانتقادات الصحافة؟ أم هو اختيار سليم، لأن ذلك منحه حضورا لمدة يومين في كل اليوميات؟ يؤكد الصحافيون البرلمانيون أنه بعد كل تصريح متبوع بتكذيب يكون السياسي قد أصدر هذا الشبه تصريح لكي تنشره الجريدة ولكي يتمكن من تكذيبه في اليوم الموالي، ويكون بهذا قد قذف بالون اختبار ليوصل لجهة ما وعدا أو تحذيرا. والحالة هذه نود مساءلة البرلماني الصحافي الذي كان ضحية سياسي

ماكر: «لكن لماذا الدخول في هذه اللعبة، عوض أن يلزم الآخرين بمراقبة وتوقيع أجوبته المحال عليها بين مزدوجين»؟

إن الجواب بسيط. في هذه اللعبة الكل يربح شيئا ما ولن يخسر أي شيء. وفي حدود أن اللعبة خطرة، فإن التصريحات ستتوالى ويفقد القارئ الخيط الرابط بينها وينسى ما سبق أن قيل. ومن جهتها تقدم الجريدة الخبر بالبنط العريض ويجنى السياسي المكاسب التي رسمها منذ البداية. إن الأمر يتعلق بميثاق مغرض يتم على حساب القارئ والمواطن. ولكنه كباقي الجرائم، لا فائدة ترجى منه في نهاية الأمر: إن الثمن بالنسبة للسياسي والجريدة، سواء بسواء، هو فقدان ثقة القارئ ورد فعله الساذج.

لقد أصبح الحوار جذابا كما رأينا بفضل التحولات الجذرية التي لحقت اللغة السياسية التي تعد، من خلال شكلها السجالي المتلفز، نبيهة بل سحرية ومباشرة. ولفترة طويلة اشتكينا من السياسيين الإيطاليين الذين يقرأون تصريحا مقتضبا وغامضا ومكتوبا على جزء من ورقة، وأُعجبنا بالسياسيين الأمريكيين الذين يخيل إليك وهم يتحدثون في الميكرو أنهم يرتجلون ارتجالا مضمنين خطابهم كلمات رائعة: أغلبهم استفاد من دروس (speech center) في جامعاتهم؛ إنهم يحتكمون، كما احتكموا من قبل، لقواعد فن خطابي ظاهره ارتجال وباطنه صناعة دقيقة؛ إنهم يستعملون وسبق أن استعملوا كلمات مليئة بالفكاهة مدرجة في كتب متخصصة (إلا في حالات زلات اللسان).

إن رجل السياسة الذي ينتمي إلى الجمهورية الثانية يرتجل

فعلا، بعد أن تخلص من الفصاحة الكهنوتية للجمهورية الأولى. إنه يتحدث عادة بطريقة أكثر وضوحا من دون رقابة عادة. فلا فائدة من القول بأن الأمر يتعلق عند بعض الجرائد بهبة سماوية، خاصة عند تلك التي تود أن تتخذ شكل الأسبوعية. واسمحوا لي بهذه المقارنة الوقحة، ولكن هذا الأمر يذكرني بذلك الميكانيزم السيكولوجي العادي الذي نعاينه في فندق قروي حيث إذا تجرأ أحد الزبناء ورفع صوته متلفظا بجمل بذيئة يقوم الآخرون بالدفع به إلى التمادي في سلوكه. إن الأمر يتعلق بدينامية الاستفزاز التي هي أساس الفرجة المتلفزة، وهي ما يحكم العلاقة بين الصحافي والسياسي فنصف الظواهر التي نحددها اليوم باعتبارها «تسميما للصراع السياسي» مصدرها هذه الدينامية المنفلتة من كل رقابة. بالتأكيد، قلت إن القارئ الذي ابتلعته هذه الزوبعة ينسى التصريح الخاص، ولكن ما يبقى ويستعمل هو إيقاع النقاش والاعتقاد أن كل شيء مباح.

الصحافة تتحدث إلى الصحافة

قد يحدث في هذا التسابق الرهيب نحو التصريحات، ألا تتحدث الصحافة سوى عن الصحافة. وتعودنا على قراءة مقال في الجريدة أو حوار سيظهر غدا في الجريدة ب. وتعودنا أيضا أن نقرأ تكذيبا يؤكد ألا أحد صرح للجريدة بأي شيء، متبوعة بجواب الصحفي الذي يؤكد أنه قرأ الجواب في حوار أعطي للجريدة ب دون أن يكلف نفسه عناء التأكد أن ب هي نفسها اقتبست الخبر من الجريدة ج.

فعندما لا تتكلم الصحافة عن التلفزة، فإنها تتحدث عن نفسها، ولقد تعلمت ذلك من التلفزة التي تتحدث أساسا عن التلفزة. وعوض أن يثير هذا تنديدا مؤسفا، فإن هذه الوضعية غير الطبيعية تلعب لعبة السياسيين الذين ارتاحوا وهم يرون أن تصريحاتهم لمنبر واحد تشير إليها كل المنابر الأخرى. وعلى هذا الأساس، فإن وسائل الإعلام تتحول من نافذة على العالم إلى مرآة. فالقراء والمشاهدون يتأملون عالما سياسيا معجبا بنفسه كما هو حال ملكة بلانش نيج[8].

من ينجز اليوم السبق الصحفي

لقد قامت جريدة l'espresso مرارا بحملات ظلت عالقة بالأذهان لعل أشهرها: «عاصمة فاسدة» و«أمة موبوءة». فلنتمعن في تقنيات هذه الحملات. لا أملك في منزلي سوى أعداد تغطي سنة من هذه الجريدة، وهي سنة 1965 وتصفحتها في الأيام الأخيرة. تتناول مقالات هذه الجريدة من العدد الأول إلى العدد 7 موضوعات سياسية واجتماعية، ولا وجود لأي اكتشاف جدير بالتقدير. ابتداء من العدد 7 ظهر تحقيق لجانوزي «الضريبة النوعية للقديس بير» حيث اتهم الفاتيكان بالتهرب من أداء ثلاثة ملايير لمدة ثلاث سنوات بإذن من الحكومة الإيطالية. لقد كنا في قلب المرحلة المجمعية[9]، لقد تم التشكيك في البند السابع

---

(8) blanche neige حكاية خرافية مشهورة في أوروبا، لعل أهمها هي تلك التي كتبها الإخوة جريم سنة 1812 (المترجم).

(9) مجمع كرادلة الكنيسية (المترجم)

من الدستور، ولقد كان الموضوع ناريا. وفي العدد الثامن، لم تثر الجريدة موضوع الضريبة من جديد. وفي المقابل، نشرت الجريدة مقالا صغيرا حول le vicaire[10] لرولف هوشيث الذي منع عمدة روما عرضه، بالإضافة إلى مقال لسكالي. وهناك أيضا مقال غير موقع يمس الحياة الخصوصية للقنصل. ودون أن ينتبه القارئ لأول وهلة إلى ذلك، فإن موضوع هذه المسرحية أعيدت إثارته في الخانة المخصصة للمسرح التي يشرف عليها ساندرو دو فووي. وفي العدد 9 بدأت الجريدة بنشر استطلاع مطول لكميلا سيديرنا حول كواليس القنصل وهو استطلاع استمر نشره إلى العدد الثالث عشر.

وفي العدد الثالث عشر فقط، بعد مرور شهرين تقريبا، سيفتح مقال ليفيو زانيتي القضية السياسية الخاصة بالنقاش حول مراجعة المعاهدة البابوية، ولن يُشار إلى الغش الضريبي المفترض للفاتيكان إلا في نهايته. وستعود الجريدة إلى إثارة هذه القضية في العدد الرابع عشر، لكن ليس في صفحتها الأولى. وفي العدد الخامس عشر، كانت الكنيسة حاضرة من خلال مقال لفالكوني حول القساوسة المتمردين وحول قضية كنيسة باربيليا[11] التي كانت ما زالت في بدايتها. وفي العدد السادس عشر فقط ستثير الافتتاحية في الصفحة الأولى الثقل

---

(10) عنوان مسرحية للمسرحي الألماني رولف هوشيت(ولد سنة 1931) موضوعها الرئيس مسؤولية الفاتيكان فيما حصل لليهود على أيدي النازيين.(المترجم)

(11) الدون لورينزو ميلاني قس كاثوليكي منشق أسس في باربيانا في توسكاني مدرسة تعارض المناهج التقليدية للتعليم. (المترجم)

السياسي لزيارة بيترو نيني[12] للفاتيكان. فهل ستدافع الدولة الإيطالية عن مصالحها؟ وابتداء من العدد الثامن عشر، ستنشر الجريدة بحثا حول أسرار القضاء.

لقد كان للجريدة استراتيجيتها بطبيعة الحال. لقد كانت تعرف أنها لا تستطيع الهتاف «إليكم الذئب» كل أسبوع، لقد كانت تقطر ذلك تقطيرا، وتنشر الأخبار قطرة قطرة، لكي تسمح للقراء بتكوين فكرة على مهل، وتلمح للطبقة السياسية بوجود رقابة لا تكاد ترى ولكنها دائمة، ويوحي بأن الجريدة يمكن أن تتحدث مستقبلا بالمكشوف.

فهل بإمكان أسبوعية التصرف بالطريقة نفسها؟ لا: أولا كان L'Espresso في تلك المرحلة يتوجه، من خلال كمية السحب وطريقة التقديم، إلى الطبقة الحاكمة، أما الآن فقد ازداد عدد قرائه خمس مرات، فلا يمكنه تبني أسلوب التلميح الدقيق والتدريجي والتصاعدي؛ ثانيا يعمد في المرحلة الراهنة إلى تناول السبق الصحفي وتضخيمه من طرف كل الصحافة، فلكي تتناول الأسبوعية الموضوع من جديد، عليها أن تضرب بقوة، عليها البحث عن أخبار صاخبة، حتى لو اضطرت إلى النفخ في أخبار ليست مؤكدة؛ ثالثا إن الموضوع في عالم السياسة، وعندما تستولي عليه التلفزة، سيقود إلى نوع من المضاربة. حينها لن يكون موضوع الخبر هو الشك والغش الضريبي أو

(12) نائب رئيس مجلس الوزراء من 1963 إلى 1963 (المترجم)

المعاهدة البابوية، بل النقاش الساخن والسحري الذي يثيره هذا الموضوع ـ ولن تتحدث الأسبوعية سوى عن الطريقة التي تناولت من خلالها الصحف الأخرى المكتوبة أو المرئية هذه القضية؛ رابعا وأخيرا من بين عناصر التحولات التي لحقت الصحافة، تلك الخاصة باستحالة عدم الأخذ بعين الاعتبار الموقف الجديد للقضاء. إن الصحافة تتدخل حيث تصمت القوى السياسية، ويصاب القضاء بالعمى. فبعد عملية الأيادي النظيفة، تعرض القضاء لإدانات من كل الجهات بحيث لم يعد للصحافة ما يمكن قوله أو اكتشافه. فلم يكن بإمكانها سوى تناول من جديد الإدانات التي نطقت بها المحاكم (أو استباق ذلك من خلال لهاث وراء القضايا الخاصة)، أو تغيير اللعبة وإدانة القضاء. ولكن هنا أيضا لا تقوى على مجاراة التلفزة. لقد أصبحت لعبة جميع الأطراف بالغة التشنج، وأفرغها هذا التشنج من كل تأثير ولم تعد تنتج سوى أثر عام ووحيد هو تسميم الحياة السياسية.

فإذا كانت الجريدة قديما ترسل بعض جواسيسها الذين يجوبون ردهات قصر روما من أجل الحصول على بعض التصريحات الخجولة من أفواه أناس لهم دراية بالأمور، فعليها اليوم أن تكون حذرة من شخص يقدم لها دون سؤال ملفات ساخنة ستصبح، إذا لم تتأكد من صدقيته، بوقا مغررا به، وتفقد بهذا كل مصداقية. وعلى الجريدة حينها أن تقف موقف الدفاع، أن تقف في وجه الضربات التي تأتي من الخارج. لقد انتصر

بيكوريلي[13] ـ الذي كان يلعب في الوسط بين الحدث والعالم السياسي والاستطلاع والصحافة ـ على أريغو بينيديتي[14] ـ الذي كان يفكر في الصحافة باعتبارها سلطة رابعة مستقلة.

ولا تسير الأمور في الخارج بشكل مختلف، يجب الاعتراف بذلك. وقد تأسفت فرنسا مؤخرا على أن الجري وراء السبق الصحفي قد مس بشكل سافر الحميمية الخاصة لرئيس الجمهورية.

تبين لنا المقارنة بين نيكسون وكلينتون نتائج هذا الركض وراء السبق الصحفي. فقبل البحث الذي قامت به الواشنطن بوست حول واترغيت، لم تكن هناك أية حملة من طبيعة سياسية ضد الرئاسة وشرفها. فإذا نظرنا إلى التدليس في ذاته، فإن نيكسون كان بإمكانه النجاة منه بسهولة من خلال اتهام بعض معاونيه المتحمسين، ولكنه ارتكب خطأ عندما اعتمد على كذبة. وهنا راهنت الحملة الصحفية على أن رئيس الولايات المتحدة كذب، وسقط نيكسون، لا لأنه كان مذنبا بشكل غير مباشر، فقد تجسس على خصومه، بل لأنه ظهر أمام الأمريكيين كذابا. لقد كان الاختيار دقيقا ومضبوطا ومحسوبا وبهذا كان فعالا. وما يجعل الحملة ضد كلينتون أقل

---

(13) لقد تخصص كينو بيكوريلي مدير مجلة O P (osservatio politico) في نشر وثائق تعرض رجال السياسة للشبهات. وقد قتل في ظروف غامضة في 20 مارس 1979 بعد أن هدد بنشر الدفاتر السرية لالدو مورو (التي كتبها أثناء احتجازه من طرف الألوية الحمراء) التي كان هذه الدفاتر تتهم صراحة جوليو أندريوتي رئيس ا لمجلس الوزراء آنذاك.

(14) لقد كان أريغو بينيديتي مؤسسا لمجلة l'Europeo.

قيمة ومتداعية هو أننا أمام سبق يتحقق يوما بيوم، ومن أجل الحصول عليه لم يترددوا في أن ينسبوا إلى كلينتون وهيلاري كل السلوكات المشينة: المضاربات العقارية وإطعام قطة بأموال الدولة، لقد تجاوز الأمر كل الحدود. لقد اختلط الأمر على الرأي العام، وظل شاكا في الأمر. وهنا أيضا لم ينتج عن الحملة سوى تسميم الصراع السياسي: لا نعوض زعيما إلا إذا نجحنا في الزج به في السجن.

ما العمل

للخروج من هذه التناقضات لم يبق أمام الصحافة سوى سبيلين كلاهما شاق، وحتى الجرائد الأجنبية التي مارستهما لحد الآن كان عليها أن تغير من أسلوبها لكي تتلاءم مع مقتضيات الزمن الجديد.

السبيل الأول هو السبيل الفيجي. في سنة 1990 قضيت ما يقارب الشهر في جزر فيجي، والسنة الماضية قضيت أيضا ما يقارب الشهر في جزر الكاريبي. فلم يكن بإمكاني في هذه الجزر البعيدة أن أقرأ سوي اليوميات المحلية: 8 أو 10 صفحات أغلبها إشهار للمطاعم وأخبار محلية. ولقد كنت في فيجي عندما وقعت أزمة الخليج، وكنت في الكاريبي عندما انطلق النقاش حول مرسوم بيوندي[15]: تصوروا لقد كنت مطلعا

(15) لقد حاول بيوندي سنة 1994 وكان وزيرا للداخلية في حكومة بيرليسكوني تمرير مرسوم، تحت غطاء تدعيم اليد النظيفة، تبيح على العكس من ذلك، عفوا أفضل. ولقد كان للقضية صدى كبيرا في الصحافة.

على كل الأحداث الأساسية. إن هذه الصحف الفقيرة التي لم تكن تشتغل إلا استنادا إلى البلاغات التي تصدرها الوكالات، تستطيع مع ذلك أن تقدم للقراء في سطور الأخبار الرئيسة التي حدثت في اليوم السابق. ومن هذه المسافة البعيدة، كنت أخمن أن ما لا تشير إليه الصحيفة لم يكن من الأهمية التي نوليها إياه.

إن اتباع الطريقة الفيجية بالنسبة لجريدة ما يستدعي بالتأكيد انهيارا كليا لمبيعاتها. ستتحول إلى نشرة موجهة لنخبة شبيهة بتلك التي تقرأ نشرات سوق التبادلات النقدية: فمن أجل فهم قيمة خبر بشكل جيد، يجب التوفر على عين مدربة. ولكن الأمر سيكون كارثيا بالنسبة للحياة السياسية التي ستفقد الوظيفة النقدية للصحافة. قد يعتقد السياسيون السطحيون أن التلفزة كافية بالنسبة إليهم: ولكن التلفزة، شأنها في ذلك شأن كل أشكال الفرجة، معرضة للتآكل. إن طبقة سياسية ما تنمو وتنضج من خلال المواجهات الضخمة والهادئة والرصينة، كما تبيح ذلك علاقتها بالصحافة. ستكون الطبقة السياسية هي أول من يخسر كل شيء، من صحافة يومية تحولت كلية إلى أسبوعيات وتابعة للتلفزة (إنها لا تعكس إلا بعض الامتيازات القصيرة المدى: قليلة وسرعان ما تنبذ).

أما السبيل الآخر فهو ما سميته «الاهتمام الموسع»: تتخلى اليومية عن رغبتها في التحول إلى أسبوعية للمنوعات، وتصبح منجما ضحلا للأخبار الصحيحة حول كل ما يجري في العالم، لن تتحدث سوى عن الانقلابات العسكرية التي وقعت بالأمس في

بلد من بلدان العالم الثالث، ولكنها ستتابع بانتباه كبير أحداث هذا البلد حتى عندما لا يثير اهتمام أحد، وتستطيع أن تشرح لقارئها لماذا يجب أن نهتم بما يجري في هذا البلد (المصالح الاقتصادية والسياسية للبلد). والحال أن هذا النوع من الصحافة يقتضي إخضاع القارئ لتربية طويلة. ولكن يومية من هذا النوع ستفقد في إيطاليا قراءها قبل أن تتمكن من تربية هذا القارئ. ونيويورك تايمز نفسها، التي تتوفر على قراء حذقين وتصدر في نيويورك وتستحوذ على كل شيء، تجد نفسها اليوم في مواجهة يومية أخرى U S Today ملونة وخفيفة سرقت منها جزءا من قرائها.

ولكن هناك شيء آخر. فمع تطور التليماتيك والتلفزة المتفاعلة، سيكون بإمكان أي منا أن يرَكِّب ويطبع أيضا في منزله بواسطة آلة التحكم عن بعد يوميته الخاصة، مستفيدا من مصادر لا حصر لها. وهذا فيه خطر قاتل لليوميات ـ وليس للناشرين والجرائد التي تبيع أخبارها بثمن بخس. إن خطر الجريدة ذات «الصنع المنزلي» هي أنها لا تقدم إلا ما يهم المستعمل، وهي بذلك تحرمه من باقي الأخبار والأحكام أو صرخات النجدة التي قد تتوجه إليه. إنها تحرمه أيضا من إمكانية الاطلاع، وهو يتصفح الجريدة، على خبر غير متوقع وغير مرغوب فيه. سنكون أمام نخبة من المستعملين على بينة من أمرهم يعرفون متى وأين البحث عن الأخبار، وكتلة من الضعفاء، يكتفون بخبر يعلن عن ولادة ثور برأسين في منطقة ما، ولكنهم يجهلون كل شيء عن العالم. والواقع أن هذه هي حالة الصحف الأمريكية التي تصدر في

نيويورك وسان فرانسيسكو ولوس انجليس وواشنطن وبوستون.

وهذا أمر لا يخدم أيضا مصالح السياسيين الذين سيضطرون إلى الاكتفاء بالتلفزيون: سنكون أمام نظام جمهوري استفتائي حيث لا يتصرف الناخبون إلا استنادا إلى انفعال اللحظة، من برنامج إلى برنامج ومن ساعة إلى ساعة. ولا أحد ينظر إلى هذه الوضعية بعين الرضا، ولن يكون السياسيون وحدهم على رأس هؤلاء، بل المجموعات السياسية التي ستتقلص حياتها على شاكلة توب موديل[16].

صحيح هناك المستقبل الذي يوفره الأنترنيت، وسياسيون كثيرون، منهم آل غور، أدركوا سر ذلك منذ مدة. فالخبر يوزع من خلال قنوات مستقلة، فالنظام أسيفال لا يمكن مراقبته، فالكل يناقش الكل والنظام يستجيب للاستمزاجات في وقت قياسي ويستوعب الرسائل حتى ولو كانت عميقة، ويكتشف مضامينها شيئا فشيئا، وللكل علاقات ونقاشات متجاوزة للجدل البرلماني أو السجال الصحفي الذي ولى زمنه.

ومع ذلك، نلاحظ على الأقل بالنسبة لفترة طويلة ما يلي:
أ) ستظل الشبكات التلماتيكية موجهة إلى نخبة شابة ومثقفة، لا لسيدات المنازل والمهمشين والمتقاعدين أو البرجوازيين الذين يصوتون كل منهم على حزبه المفضل. قد أكون مازحا وأنا أهددكم، ولكن هذا الأمر يحتوي على شيء من الصحة: لا تقدم

(16) إشارة إلى المسلسل الأمريكي الشهير الذي امتد عرضه لسنوات (المترجم).

هذه الشبكات الآن لا لكم ولا لناخبيكم التقليديين سلطة ما، بل ستمنحها لطلبتي الذين سيلقون جسورا مميزة مع يوبس ولستريت؛ ب) ليس مؤكدا أن هذه الشبكات ستظل أسيفال، منفلتة من الرقابة على مستوى عال؛ فنحن نعيش في مرحلة تعج بكل شيء، وغدا سيأتي بيغ بروثر ليتحكم في كل قنوات الدخول؛ ج) إن الكم الهائل الذي توفره هذه الشبكات سيقود إلى رقابة ناتجة عن الإشباع الزائد. فنيويورك تايمز ليوم الأحد يتضمن كل ما يستحق أن يطبع، ولكنه لا يختلف كثيرا عن البرافدا في زمن ستالين، فبما أننا لا يمكن أن نقرأ كل شيء في سبعة أيام، فإن الأخبار تبدو كأنها مراقبة وممنوع الاطلاع عليها. إن تضخيم الأخبار يقود إلى ظهور معايير مرتجلة أو إلى اختيارات دقيقة، النخبة الحذقة وحدها يمكن أن تستفيد من ذلك.

كيف سنختم؟ في رأيي ما زال للصحافة، بالمفهوم التقليدي لليوميات والأسبوعيات المطبوعة على الورق التي يشتريها طوعا قراء من الكشك، وظيفة أساسية، لا من أجل النمو الحضاري لبلد ما فحسب، ولكن أيضا من أجل إرضائنا، ومدنا بلذة العادة التي جعلت قراءة الجرائد عند الإنسان المعاصر شبيهة بصلاة الصبح كما يقول هيجل.

الظاهر أن الصحافة الإيطالية تشكو من انزعاج هي على أتم الوعي به، ولكنها لا تعرف كيف تتخلص منه. وبما أن الحلول، كما رأينا ذلك ليست سهلة، فإن عليها أن تبدأ تغييرا طويلا، يجب ألا يكون العالم السياسي غريبا عنه. لا يمكننا أن نطلب

من الصحافة الحذف الكلي لسيرورة التحول إلى أسبوعية، وذلك للأسباب التي أشرنا إليها. ولكننا لا يمكن أن نشجعها على ألا تلتفت سوى إلى ما يقوله القصر أو التصريحات المرتجلة. وفي الواقع، فإن خطر الأزمة خطر مشترك.

من أجل الشروع في شيء ما، قد يحدث أن يرسل سياسي ما إلى الصحافة نصا لكي ينشر في خانة «نتوصل وننشر بصدر واسع». طيب، قد تكون هذه طريقة للإسهام في التفكير وتحمل السياسي لمسؤولية تصريحاته. ولكن يجب أن يطلب من هذا السياسي أن يقرأ كل حواراته ويتحمل مسؤولية ما هو وارد بين مزدوجين. لن ينشروا له كثيرا في الصحافة، ولكنه سيتمتع بمصداقية كلما كتب شيئا ما. وستستفيد الجرائد أيضا من ذلك، فهي لن تكتفي بتسجيل حركات مزاجية تحصل عليها بين احتساء فنجاني قهوة. كيف ستملأ الصحافة هذه الفراغات؟ ربما من خلال البحث عن أخبار أخرى في العالم، هناك بعيدا عما يجري في مقر البرلمان ومجلس الشيوخ، وهو أمر لا أهمية له عند ملايير من البشر، في حين أن هذه الملايير يجب أن تكون لها أهمية عندنا؛ من الضروري أن نتحدث عن هذه الملايير أكثر فأكثر، لأن لملايين من مواطنينا مصالح معهم، ولأن مستقبل مجتمعنا مرتبط بنموهم أو أزمتهم.

هذه دعوة موجهة إلى الصحافة وإلى رجال السياسة أيضا، دعوة إلى رؤية العالم لا المرآة.

الأنا والآخر



عزيزي كارلو ماريا مارتيني

لقد انتزعتني رسالتك من حيرة لكي تلقي بي في حيرة أخرى لا تقل خطورة عن الأولى. في السابق كنت أنا (لا رغبة مني) من يفتح النقاشات، وأنا من قُدر عليه أن يطرح الأسئلة وينتظر أجوبة من الآخر. وهذا مصدر ذلك الإحساس بالتحدي الذي يسكن روحي. ومع ذلك، فإني نظرت بكثير من التقدير إلى العزم والتواضع اللذين من خلالهما، ولثلاث مرات متتالية، قضيتم على الخرافة التي تقول إن اليسوعيين يجيبون عن سؤال من خلال سؤال آخر.

ولكنني حائر الآن في أمر الإجابة عن رسالتك[1]، ذلك أن جوابي سيكون دالا لو كانت لي تربية علمانية. والحال أن تربيتي كانت تربية كاثوليكية إلى حدود سن 22 (إذا كان الأمر يستدعي تحديد لحظة الشرخ). لم تكن الرؤية العلمانية عندي أبدا إرثا تم استيعابه بشكل سلبي، بل كانت نتيجة تحول طويل وبطيء ومؤلم. ولدي إحساس أن مجموعة من قناعاتي

(1) يجيب نصي عن السؤال الذي طرحه الكاردينال مرتيني: «ما هي الأسس اليقينية وضرورتها الأخلاقية التي يعتمدها ذاك الذي يود تأسيس المطلق الأخلاقي، دون الاستنجاد بمبادئ ميتافيزيقية أو على الأقل، بأمور مطلقة مقبولة كونيا؟

الأخلاقية تحكمها لحد الآن تلك البصمة الدينية التي أثرت في منذ البدايات الأولى. ولكن مع تقدم العمر رأيت بعض زملائي يستعدون لممارسة الطقوس الدينية دون اعتقاد «في الحضور الفعلي»، وبالتالي دون أن يكونوا معمدين (رأيت هذا في جامعة كاثوليكية أجنبية تشغل أساتذة علمانيين ولا تطلب منهم سوى إبداء نوع من الاحترام أثناء الطقوس الدينية الجامعية). لقد ارتعشت، لقد أحسست، بعد مرور كل هذه السنوات، بفظاعة المس بمقدس ما.

ومع ذلك بإمكاني الإفصاح عن الأسس التي تقوم عليها «دينِيَّتي» العلمانية. فأنا متأكد أنه حتى بدون إيمان بإله محدد وسماوي، هناك أشكال من التدين، وتبعا لذلك، هناك نوع من المقدس والحدود والتساؤل عن المصير والارتباط مع شيء يتجاوزنا. ولكن الأمر يتعلق هنا بأشياء أنتم أدرى بها مني. وفي واقع الأمر، ستسألونني كيف تجعلنا هذه الأشكال الأخلاقية نحس أننا مرتبطون وموجهون ولا يمكن أبدا أن نعيد النظر في هذا الأمر.

فلننظر إلى الأشياء من زاوية موسعة. هناك بعض قضايا الأخلاق أصبحت في نظري أكثر وضوحا عندما كببت على قضايا من طبيعة دلالية. وكان الأمر يتعلق بمعرفة هل هناك «كليات دلالية»، أي مقولات أولية مشتركة بين كل الكائنات الإنسانية يمكن التعبير عنها من خلال لغات مختلفة. إن الأمر يتعلق بقضية عويصة حقا، فكثير من الثقافات لا تتوفر على

مقولات تعد بديهية في ثقافتنا، من قبيل تلك الخاصة بالجوهر الذي تنتمي إليه بعض الخصائص (عندما نقول مثلا: «التفاحة حمراء») أو الخاصة بالهوية (أ هي أ). ومع ذلك، لقد وصلت إلى قناعة تقول إن هناك مقولات مشتركة بين كل الثقافات وتحيل كلها على موقع جسدنا في الفضاء.

نحن حيوانات بوضع عمودي، لهذا يصعب علينا أن نبقى في وضع يكون الرأس فيه في الأسفل. ونمتلك فكرة مشتركة عن مقولات الفوق والتحت، ونميل إلى تفضيل الأول عن الثاني. وبالطريقة نفسها، نمتلك فكرة عن اليمين واليسار، عن التوقف والحركة، عن الصحو والنوم، نعرف أن المرء يكون واقفا أو مستلقيا ويزحف ويقفز. ولنا أعضاء، ونعرف على ماذا يدل الاصطدام بشيء صلب، أو اختراق مادة رخوة أو سائل، ونعرف ماذا يعني تحطيم شيء ما، وماذا يعني التطبيل والدوس وتسديد ركلات، وماذا يعني الرقص. وبإمكاني أن أعدد أشياء أخرى وأدرج ضمن ذلك النظر والسمع والأكل والبلع والقيء. وبطبيعة الحال، كل إنسان يملك فكرة عن الإدراك والتذكر والرغبة والخوف والألم وإصدار أصوات معبرة عن أحاسيس. والخلاصة (وندخل هنا دائرة الحق) نملك تصورات كونية حول الإكراه: لا نرغب في أن يمنعنا شخص من الكلام أو النوم أو البلع أو التقيؤ، أن يمنعنا من الذهاب حيث نشاء؛ نتألم حين يقوم شخص بتقييدنا أو يفرض علينا التمييز العنصري، أو يضربنا أو يجرحنا أو يقتلنا، وأن يخضعنا لتعذيب جسدي أو

نفسي، أو يقلل من قدرتنا على التفكير أو يقضي عليها.

لاحظوا أنني لحد الآن لم أتحدث سوى عن كائن يشبه آدم الحيواني المنعزل الذي يجهل كل شيء عما له صلة بالعلاقة الجنسية ولذة الحوار وحب الأطفال والألم الذي يسببه فقدان عزيز؛ ومع ذلك أصبح علم الدلالة هذا، في المرحلة ذاتها، على الأقل بالنسبة لنا (أو على الأقل بالنسبة لها أو له) أساس رؤية أخلاقية بأكملها: علينا قبل كل شيء أن نحترم الحق الجسدي للآخر، ومنه الحق في الكلام والتفكير. فلو أن أسلافنا احترموا هذه الحقوق لما عرف التاريخ مجازر كان ضحيتها الأبرياء، والمسيحيون في السيرك، وليلة القديس بارتوليمي[2]، ومحرقة الهرطوقيين[3]، ومراكز الإبادة الجماعية والرقابة والأطفال في المناجم والاغتصاب في البوسنة.

ولكن كيف حدث أن استطاع هذا الحيوان المندهش والوحشي الذي رسمت صورته، أن يدرك، بمجرد ما بلور هذا السجل الغريزي للمقولات الكونية، رغبته في القيام بأشياء ولا يرغب في أن تمارس عليه أشياء، بل استطاع أيضا أن يدرك أنه لا يجب أن يمارس على الغير ما لا يود هو أن يمارس عليه؟

(2) la nuit de Saint-Barthélemy «ليلة القديس بيرتوليمي» يشير إلى المجزرة التي ارتكبت ضد البروتستانت في باريس يوم 24 غشت 1572 الذي يصادف الاحتفال بالقديس بيتوليمي وقد استمرت عدة أيام وشملت مدنا كثيرة في فرنسا وقتل فيها خلق كثير. (المترجم).

(3) le bucher des hérétiques والهرطوقيون هم الذين خرجوا على الكنيسة الكاثوليكية (المترجم).

إن أرض عدن، وبمحض الصدفة، عُمرت بسرعة. إن وجود البعد الأخلاقي مرتبط بظهور الآخر. فالغاية من كل قانون ـ أخلاقي أو حقوقي ـ هي تنظيم العلاقات بين الأفراد، بما فيها العلاقة مع آخر هو من يفرض هذا القانون.

أنتم أيضا تسندون للعلماني الفاضل اليقين في أن الآخر موجود فينا. والأمر لا يتعلق بميل غامض وعاطفي، بل بشرط مؤسس. وهكذا، فإن الآخر ونظرته، كما تعلمنا ذلك أشد العلوم الإنسانية علمانية، هو من يحددنا ويسهم في تشكيلنا. إننا لن نستطيع أن نفهم من نحن دون نظرة الآخر وجوابه، تماما كما لا نستطيع العيش دون أن نأكل أو ننام. فحتى ذلك الذي يقتل ويغتصب ويتجاوز كل الحدود يقوم بذلك في لحظات استثنائية، وفي غيرها، فإنه يستجدي من أمثاله القبول والحب والاحترام والحمد. بل إنه يطلب من الشخص الذي يقوم بإهانته أن يعترف له بالخوف والخضوع. وبدون هذا الاعتراف، فإن الطفل الذي يولد في قلب الغابة لن يصبح إنسانا أبدا (أو سيبحث، كما فعل طارزان، بجميع الوسائل، عن الآخر في وجه القرد)، ويمكن أن نموت أو نجن إذا عشنا وسط مجموعة قرر جميع أفرادها ألا ينظروا إلينا ويتصرفون وكأننا غير موجودين.

ولكن كيف حدث أن قبلت ثقافات أو مازالت تقبل بالمجازر والهمجية والإذلال الجسدي؟ إنها فعلت ذلك فقط لأنها تحصر مفهوم الآخر في دائرة القبيلة (أو الإتنية) وتعتبر

المتوحشين كائنات غير إنسانية؛ ولم ينظر الصليبيون، من جانبهم، إلى الكافر باعتباره قريبا جديرا بالمحبة الكبرى. وفي الواقع، فإن الاعتراف بدور الآخر وضرورة أن نحترم فيه المقتضيات التي لا يمكن أن نتنازل نحن عنها، هو نتاج سيرورة موغلة في القدم. وحتى التعاليم المسيحية في الحب لم يعلن عنها، ولم تقبل إلا بصعوبة، وكان يجب انتظار نضج شروط ذلك.

ولكن ستسألونني هل اعتراف الآخر هذا كاف لأن يمنحني أساسا صلبا لسلوك أخلاقي لا يتزحزح؟ يمكن أن أرد ببساطة أن ما تسمونها الأسس المطلقة ذاتها لا تمنع المؤمن من ارتكاب المعاصي لحظة ارتكابها. إن غريزة الشر تسكن حتى أولئك الذين لهم مقولة قائمة على أسس دينية للخير. ومع ذلك، أفضل أن أحكي لكم حكايتين صغيرتين دفعتاني إلى الكثير من التأمل.

الأولى تتعلق بكاتب أمريكي كاثوليكي ـ أو هو كذلك بالفطرة ـ ولن أذكر اسمه، فقد حدثني عن هذا الأمر في جلسة خاصة ولست نماما. لقد كان ذلك أيام ولاية يوحنا الثالث والعشرين حيث أكد لي صديقنا هذا، وهو يمدح بحماس كبير فضائل البابا، (بنية مفارقة صريحة): «قد يكون البابا يوحنا ملحدا. فوحده الذي لا يؤمن بالله يحب الناس كثيرا». وككل المفارقات، كانت هذه القضية تتضمن شيئا من الحقيقة: دون أن نتحدث عن الملحد (صورة لا أعرف مضمونها

السيكولوجي، فكيف يمكن ألا نؤمن بالله والاعتقاد باستحالة إثبات وجوده، كما يرى كانط أيضا، ثم الإيمان القطعي في عدم وجود الله وامتلاك القدرة على إثبات ذلك). يبدو لي أن الذي لم يسبق له أن عاش تجربة التسامي أو الذي افتقدها يمكن أن يعطي معنى لحياته وموته، وأن يكتفي فقط بحبه لجاره، وبإرادته لضمان حياة لغيره قابلة لأن تعاش حتى بعد مماته. وهكذا هناك أشخاص لا يؤمنون ولكنهم حريصون على إعطاء معنى لمماتهم، وهناك مؤمنون مستعدون لانتزاع قلب طفل صغير لكي يظلوا هم أحياء. إن قوة الأخلاق تقاس بسلوك القديسين، لا بما يفعله الحمقى الذين هم، في نهاية الأمر، من مخلوقات الله.

وأصل إلى الحكاية الثانية. كنت شابا كاثوليكيا في السادسة عشرة من عمري، وتلاسنت مع أحد أقربائي، وكان رجلا يفوقني سنا وعُرف عنه انتماؤه للشيوعية، بالمعنى الذي كان لهذه الكلمة في سنوات الخمسينيات. وكان يناوشني فطرحت عليه السؤال التالي: كيف يمكنه، وهو غير المؤمن، أن يعطي لهذا الشيء معنى اللامعقول، إن لم يكن ذلك من خلال موته؟ وأجابني: «أقوم بذلك بأن أطلب قبل مماتي تأبينا مدنيا. وهكذا لن أكون هنا ولكني سأترك للآخرين مثالا يحتذى». لا يمكن ألا تعجبوا بالإيمان القوي في استمرارية الحياة، والمعنى المطلق للواجب الذي يتضمنه هذا الجواب. وهو المعنى الذي دفع الكثير من الملحدين إلى الموت تحت التعذيب وعدم

خيانة أصدقائهم، ودفع بآخرين بأن يصابوا بالطاعون من أجل معالجة الآخرين. وربما هو الشيء الوحيد الذي يدفع فيلسوفا للتفلسف وكاتبا للكتابة: ترك رسالة في قنينة، لكي يعتقد الناس، بهذه الطريقة أو تلك، في أشياء نعتقد أنها جميلة ويعتبرونها هم الآخرون أيضا جميلة.

فهل نحن أمام شعور قوي قادر على تبرير أخلاق محددة وثابتة ومبنية على أسس متينة كتلك التي يؤمن بها المؤمنون بالوحي وفي خلود الروح وفي الثواب والعقاب؟ لقد أسست مبادئ أخلاق علمانية استنادا إلى واقعة طبيعية (وهي بالنسبة لكم نتيجة مشروع إلهي) كما هو الشأن مع جسدنا ومع الفكرة القائلة إن وجود الآخر وحده هو الذي يخبرنا بشكل غريزي أننا نملك روحا (أو شيئا يحل محلها)، وحيث يبدو أن ما أسميه أخلاقا علمانية هو في واقع الأمر أخلاق طبيعية يدرك معناها المؤمن نفسه. ألا تشكل الغريزة الطبيعية، إذا دفعنا بها إلى ما يكفي من النضج ومنحناها القدرة على أن تعي نفسها بنفسها، أساسا يشتمل على كل الضمانات الكافية؟ بالتأكيد، من حقنا الاعتقاد بعدم وجود حافز كاف للفضيلة: قد يقول رجل غير مؤمن: لا أحد سيعرف، في جميع الحالات، سر الأفعال الشريرة التي أقوم بها الآن. ولكن حذار، إن الملحد يعتقد ألا أحد يراقبه من فوق ويعرف إذن ـ بسبب ذلك ـ ألا أحد أيضا يمكن أن يغفر له ذنوبه. فإذا عرف أنه قام بسلوك شرير، فإن وحدانيته ستكون لانهائية وموته عبثيا. إنه قد يخاطر أكثر من

المؤمن وينحني للتطهر الذي يجلبه الاعتراف العلني ويطلب من الآخرين العفو. وهذا أمر يعرفه حق المعرفة، وبناء عليه، يعرف أن عليه أن يغفر للآخرين. فكيف يمكن أن نفسر ذلك إن لم يكن بالقول إن الندم هو إحساس يشعر به الملحدون أيضاً.

لا أريد أن يكون هناك إحساس بوجود تقابل قطعي بين من يؤمن بإله متعال، وبين من لا يؤمن بأي مبدأ متعال. يجب ألا ننسى أن كتاب سبينوزا الضخم كان مخصصا للأخلاق، كتاب يبدأ بتعريف الله باعتباره علة لذاته، مع فارق بسيط هو أن هذه الألوهية السبينوزية، ونحن أدرى بذلك، ليست لا متعالية ولا شخصية: ومع ذلك، فإن تصور وجود مادة كونية كبيرة ووحيدة ستبلعنا ذات يوم، يمكن أن تولد رؤية للتسامح والإحسان. ذلك أننا كلنا معنيون بتوازن هذه المادة الوحيدة وتناغمها. إننا كذلك، لأنه يبدو لنا من المستحيل ألا تكون هذه المادة قد اغتنت أو تشوهت بما قمنا به منذ آلاف السنين. وهو ما يدفعني إلى القول، من هذا المنظور، بوجوب التساؤل من جديد حول قضية وجود حياة ما بعد الموت (لا تنظروا إلى هذا الأمر باعتباره فرضية ميتافيزيقية، بل هو تنازل خجول للأمل الذي لا يفارقنا أبدا). يعلمنا الكون الإلكتروني، في أيامنا هاته، أن هناك مقاطع من رسائل تنتقل من سند فيزيقي إلى آخر دون أن تفقد خصائصها، بل يبدو أنها يمكن أن تستمر في الوجود على شكل لوغاريتمات لامادية في اللحظة التي تنفصل فيها عن سند وقبل أن تطبع على سند

آخر. ومن يدري، عوض أن يكون الموت انبجاسا، فإنه لن يكون سوى انفجار وانطباع للبرماج (logiciel)، في مكان ما، ضمن أعاصير الكون (الذي يسميه البعض روح)، وهو الأمر الذي بلورناه ونحن نحيا، إنه برماج مصنوع من الذكريات والندم الشخصي، وهو بناء على ذلك، مليء بعذاب لا شفاء منه، أو إحساس بالسلام ارتياحا على الواجب الذي قمنا به أو إحساس بالحب.

ولكنكم ستقولون بأنه، بدون مثال وبدون كلمات السيد المسيح، لن يكون بمقدور الأخلاق العلمانية التوفر على قوة إقناعية لا يمكن التشكيك فيها.

لماذا نحرم العلماني من الاستفادة من مثال المسيح الذي يغفر؟ حاولوا يا سيد كارلو ماريا مارتيني، من أجل حسن النقاش والمواجهات التي تؤمنون بها، أن تقبلوا لحظة واحدة فقط بفرضية عدم وجود الله: إن الإنسان ظهر على الأرض نتيجة حظ عاثر، ومحكوم عليه بالفناء، ولكن محكوم عليه أيضا أن يكون واعيا بذلك، ويكون أكمل الحيوانات (اسمحوا لي نبرة هذه الفرضية المستوحاة من ليوباردي[4]. إن هذا الإنسان سيصبح بالضرورة، من أجل أن تكون له الشجاعة في

(4) Giacomo Leopardi (1798 ـ 1837) شاعر وأخلاقي وفيلسوف إيطالي، عرف عنه شدة تدينه من أعماله:
-Petites oevres morales
-Les cents onzes pensées
-Le zibldone (المترجم).

انتظار الموت، حيوانا دينيا طامحا إلى بناء حكايات قادرة على منحه شرحا ونموذجا وصورة مثالية. ومن بين كل الصور التي يستحضرها هناك الرائعة وهناك الرهيبة، وهناك صور مواسية بشكل مرضي. إن الإنسان يمتلك في لحظة الامتلاء الزمني، القوة الدينية والأخلاقية والشعرية على تصور نموذج السيد المسيح، والحب الكوني وعفو الأعداء والحياة التي تمثل على شكل هولوكوست من أجل خلاص الآخرين. لو كنت مسافرا جاء من كواكب بعيدة واكتشف فصيلة عرفت كيف تقترح نموذجا من هذا النوع، فإنني سأحيي بخشوع كل هذه الطاقة الإلهية وهذا النوع الرديء والبائس الذي ارتكب الكثير من الفظاعات، وسأحكم عليها باعتبارها تستحق العفو، لأنها فقط نجحت في الرغبة وفي الاعتقاد أن هذا كله هو الحقيقة.

تخلوا الآن عن هذه الفرضية ودعوها للآخرين: ولكن اعترفوا أن المسيح لم يكن موضوعا لحكاية كبيرة، وأن تكون هذه الحكاية قد تم تصورها من لدن ذي قائمتين بلا أجنحة ويعرف فقط أنه لا يعرف، فهذا أمر لا يقل إعجازا عن أن يكون ابن اله واقعي قد تجسد فعلا (وغريب بشكل معجز). إن هذا السر الطبيعي لا يكف عن بعث الحيرة في نفوسنا ويشرف قلب غير المؤمن.

ولهذا السبب، واستنادا إلى النقط الأساسية، أعتقد أن أخلاقا طبيعية ـ محترمة في عمقها الديني الذي يحركها ـ يمكن أن تكون في مواجهة مبادئ أخلاق مؤسسة على إيمان

بالتسامي، وهذا الإيمان سيقود لا محالة إلى الاعتراف أن المبادئ الطبيعية تم نحتها في قلبنا انطلاقا من برنامج للخلاص. وإذا ظلت هناك، وستظل بالتأكيد، هوامش لا تتطابق مع ذلك البرنامج، فإن الأمر لن يكون مختلفا عن قضية المواجهة بين مختلف الأديان. فما يجب أن يؤخذ به في صراع الأديان، هو الرحمة والحذر.



النزوح والتسامح وغير المسموح به



1 ـ نزوح الألفية الثالثة

في سنة 1992 تمت صياغة ميثاق من أجل تحديد الواجبات العلمية والأخلاقية، وذلك بمناسبة تأسيس الأكاديمية الكونية للثقافات، وهي أكاديمية تضم فنانين وعلماء من كل بلدان العالم،. وتم الإعلان في ديباجة هذا الميثاق أن أوروبا ستشهد في الألفية المقبلة «مزيجا ثقافيا». وحدث ذلك فعلا.

فإذا لم يقع ما يوقف مجرى الأحداث فجأة (كل شيء ممكن) فسيكون علينا الاستعداد لرؤية أوروبا وهي تتزيى بزي نيويورك أو بعض بلدان أمريكا اللاتينية. ففي نيويورك، وعلى نقيض ما يسمى melting pot حيث تتعدد الأعراق والجنسيات، هناك ثقافات متعددة متعايشة فيما بينها، من البورتوريكيين إلى الصينيين، ومن الكوريين إلى الباكستانيين: وهناك مجموعات اندمجت فيما بينها (الإيطاليون والإرلنديون، اليهود والبولنديون)، ومجموعات أخرى ظلت منعزلة (تتعدد اللغات في أحياء مختلفة وتمارس عادات مختلفة)، ولكنها جميعها متفقة حول قوانين مشتركة ولغة مشتركة هي ذاتها التي يتكلمها الكل بهذا القدر أو ذاك. وأذكركم أن الساكنة التي نسميها بيضاء في نيويورك في تقلص مستمر وتشكل أقلية: 42 في المائة من

البيض و58 في المائة من أصول مختلفة ومنهم الويسبز (البيض، الأنجلو ساكسونيون البروتستانت) الذين يشكلون أقلية (هناك بولنديون كاثوليك، إسبانو أمريكيون وإيرلنديون الخ).

أما في أمريكا اللاتينية، فقد اتخذت الظاهرة منحى آخر حسب البلدان: لقد تزاوج المعمرون الإسبان مع الهنود، وأحيانا مع أفارقة (كما حدث في البرازيل)، بل لقد ولدت أحيانا لغات وساكنة يطلق عليها كريول(هي مزيج بين أعراق). فمن الصعب جدا القول، حتى في الحالة التي نتبنى فيها مفاهيم العرق والدم، إن هذا المكسيكي أو ذاك البيروفي هو من أصول أوروبية أو أمريكية هندية، دون أن نذكر حالة الجمايكيين.

وهذه الظاهرة هي التي ستعرفها أوروبا، ولن يستطيع أي عنصري أو أي رجعي الوقوف في وجه ذلك.

وأعتقد أنه من الضروري أن نميز، في هذه المرحلة، بين مفهوم «الهجرة» immigration وبين مفهوم «النزوح» migration. فالهجرة تعني أن مجموعة من الأفراد (أو مجموعات ولكنها قليلة عدديا في علاقتها بالساكنة الأصلية) تتحول من بلد إلى آخر (كما هو حال الإيطاليين والإرلنديين في أمريكا أو الأتراك في ألمانيا). إن ظاهرة الهجرة يمكن التحكم فيها سياسيا، والحد منها أو تشجيعها أو برمجتها أو القبول بها.

إن الأمر ليس كذلك مع النزوح. فهو حالة عادية كيفما كانت طبيعته، عنيفة أو سلمية: إنه يقع ولا أحد يستطيع إيقافه.

فـ «النزوح» يحدث عندما ينتقل شعب بأكمله على دفعات من بلاد إلى أخرى. ولقد حدثت موجات نزوح من الشرق إلى الغرب غيرت خلالها شعوب القوقاز الوراثة البيولوجية الأصلية وثقافة الشعوب الأصلية. وهناك نزوح شعوب تسمى «بربرية» أو «جرمانية ـ رومانية». وهناك النزوح الأوروبي نحو القارة الأمريكية في اتجاه السواحل الشرقية حتى كاليفورنيا، وفي اتجاه الجزر الكرايبية والمكسيك إلى أرض النار. وحتى إن كان النزوح مبرمجا جزئيا من الناحية السياسية، فإنه لن يفقد طبيعته تلك. فالأمر لا يتعلق ببيض جاؤوا من أوروبا واستوعبوا ثقافة السكان الأصليين، بل ببيض أسسوا حضارة جديدة تأقلم معها السكان الأصليون(الناجون منهم على الأقل).

وكان هناك نزوح مستمر، كذاك الذي قامت به الشعوب ذات الأصل العربي نحو الجزيرة الأيبيرية. وكان هناك شكل من أشكال النزوح المبرمج والجزئي، ولكن لم يفقده هذا الطابع أهميته، كنزوح الأوروبيين نحو الشرق والجنوب (وإليه يعود ميلاد الأمم التي نطلق عليها أمم ما بعد الاستعمار)، حيث غيروا مع ذلك ثقافة الأهالي. والظاهر أننا لم نشهد بعد ميلاد فينومينولوجيا تهتم بأنواع النزوح، ولكن هناك بالتأكيد اختلاف بين النزوح والهجرة. فالهجرة خاصة بمهاجرين (حدثت نتيجة قرار سياسي) يقبلون في جزء كبير منهم ثقافة البلد المضيف. أما النزوح فيتم عندما يغير النازحون بشكل جذري ثقافة البلد الذي يهاجرون إليه (ولا يمكن لأحد أن يوقف هذا النزوح).

أما بالنسبة لنا، بعد قرن مليء بالمهاجرين، والمقصود هو القرن 19، فإننا نجد أنفسنا اليوم في مواجهة ظواهر غير محددة: من الصعب القول، في جو مليء بالحركة، إن كان الأمر يتعلق بهجرة أم بنزوح. بالتأكيد نحن أمام دفق يسير من الجنوب نحو الشمال (تحرك الأفارقة أو المنتمون إلى الشرق الأوسط نحو أوروبا)، الهنديون غزوا إفريقيا وجزر المحيط الهادي، أما الصينيون فهم في كل مكان، واليابانيون حاضرون بقوة بتنظيمهم الصناعي والاقتصادي حتى وهم باقون في بلادهم.

هل بإمكاننا التمييز بين الهجرة والنزوح، وقد أصبح الكوكب كله أرضا للتنقل في كل الاتجاهات؟ أعتقد ذلك: لقد قلت هذا، إن الهجرات يمكن التحكم فيها سياسيا، في حين لا يمكن التحكم في النزوح، شأنه في ذلك شأن الظواهر الطبيعية. فبقدر ما تكون هناك هجرات، بقدر ما يكون بإمكان الساكنة الأصلية التحكم في المهاجرين في غيتوهات لكي لا يختلطوا مع أبناء البلد. أما إذا تعلق الأمر بنزوح، فلن تكون هناك غيتوهات، والتهجين لا مفر منه.

إن الظاهرة التي تجاهد أوروبا للتحكم فيها من قبيل الهجرة، هي في واقع الأمر حالات نزوح. إن العالم الثالث يدق الأبواب وسيدخل حتى لو رفضت ذلك أوروبا. إن القضية لا تكمن (كما يتظاهر السياسيون بالاقتناع بذلك) في قبول الطلبة الذين يضعون التشادور في باريس أو عدد المساجد التي ستبنى في روما. إن المشكلة تكمن في أن أوروبا ستكون في الألفية الثالثة قارة

متعددة الأعراق، أو إذا شئتم ملونة (وبما أنني لست نبيا فلن أعطيكم تاريخا محددا). وسيكون الأمر كذلك شئتم أم أبيتم.

وقد تكون لهذا اللقاء الثقافي (أو هذا التصادم) نتائج دموية، وأنا مقتنع أن تلك نتائجه ولا يمكن تجنبها وستستمر طويلا. ولكن، ورغم كل شيء، سيكون العنصريون (نظريا) عرقا في طور الانقراض. فهل وجد نبيل روماني لا يحتمل فكرة أن يكون الغالي والسرماتي واليهودي أمثال القديس بول هم أيضا مواطنون رومانيون، أو أن يعتلي إفريقي العرش الإمبراطوري كما حدث ذلك فعلا؟ لقد نُسي هذا النبيل، فالتاريخ قد هزمه. إن الحضارة الرومانية هي حضارة مختلطة. وسيقول العنصريون: إذن ذاك سبب انهيارها، ولكن ذلك احتاج إلى 500 سنة ـ وهذا لا يشكل سوى فترة زمنية قصيرة تبيح لنا نحن أيضا، أن نتصور مشاريع للمستقبل.

2 ـ اللاتسامح

إن الأصوليةfondamentalisme والتمامية integrisme مفهومان مرتبطان فيما بينهما ارتباطا وثيقا، ويعدان شكلين من أشكال اللاتسامح. فإذا تصفحنا القاموسين الشهيرين le petit robert وdictionnaire historique de la langue française، فإننا سنعثر على المدخل التالي: أصولي: يحيل مباشرة على تمامي. وهذا ما يعني أن كل الأصوليين هم تماميون بالضرورة والعكس صحيح.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن هذا لا يعني أن كل اللامتسامحين هم في الأصل أصوليون وتماميون. فحتى إذا كنا نواجه الآن

أشكالا متعددة من الأصولية ونعاين في كل مكان أمثلة على التمامية، فإن قضية اللاتسامح أكثر عمقا وأكثر خطورة.

وبلغة تاريخية، فإن الأصولية تعد مبدأ هرموسيا مرتبطا بتأويل نص مقدس. إن الأصولية الغربية المعاصرة ولدت في الأوساط البروتستانتية في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر، وتتميز برغبتها في تأويل الكتاب المقدس، خاصة ما يتعلق بالمقولات المرتبطة بالكون التي كان العلم في تلك المرحلة يشكك فيها. وهذا ما يفسر في الغالب الرفض اللامتسامح لكل تأويل مجازي، وبالتحديد لكل تربية تشكك في النص الإنجيلي، كما كان الشأن مع الداروينية الصاعدة.

إن هذه الحرفية الأصولية قديمة، فقد كان الآباء في الكنيسة منقسمين بين مناصر للفهم الحرفي، وبين مناصر للهرموسية[1] المرنة، كما هو الشأن مع القديس أوغستين. ولكن الأصولية الدقيقة في العالم المعاصر لا يمكنها أن تكون سوى بروتستنتية، فلكي تكون أصوليا يجب أن تقبل بأن الحقيقة معطاة مع تأويل النص الإنجيلي. وفي المقابل، فإن سلطة الكنيسة هي الضامنة للتأويل وتتخذ الأصولية البرتستنتية شكل النهج التقليدي. ولن أشير إلى الطبيعة الأصولية للإسلام واليهودية (أترك ذلك للمختصين).

(1) الهرموسية تعريب للكلمة الفرنسية heméneutique الدالة على النشاط التأويلي، وهي ليس الهرمسية التي هي ترجمة للكلمة الفرنسية hermétique نسبة إلى الإله هرمس. (المترجم)

هل تعد الأصولية لاتسامحا؟ إنها كذلك على المستوى الهرموسي، وليست كذلك بالضرورة على المستوى السياسي. فبالإمكان تصور فرقة أصولية تقول بأن الشعب المختار هو وحده يملك مفاتيح التأويل الصحيح للكتاب المقدس، دون أن يقودها ذلك إلى بلورة شكل من أشكال التبشير، ولا النضال من أجل تأسيس مجتمع سياسي مبني على المعتقدات.

أما ما نعنيه «بالتمامية» فهو موقف ديني وسياسي تشتغل المبادئ الدينية وفقه هي الأخرى باعتبارها نماذج للحياة السياسية ومصدرا لقوانين الدول. وإذا كانت الأصولية والنزعة التقليدية محافظتين في غالب الأحيان، فإن بعض التماميين ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم تقدميين وثوريين. وهناك حركات كاثوليكية تمامية غير أصولية تناضل من أجل مجتمع مبني كلية استنادا إلى مبادئ دينية، ولكنها لا تود فرض تأويل حرفي للنصوص الدينية، بل مستعدة لقبول لاهوت على طريقة تيهارد دوشاردان[2].

وقد تكون التمييزات أحيانا بالغة الدقة. ويكفي استحضار ظاهرة «اللائق سياسيا» في الولايات المتحدة. فقد ولدت هذه الظاهرة من أجل الترويج لفكر التسامح والاعتراف بكل الاختلافات الدينية والعرقية والجنسية، ولكنها تحولت إلى صورة أصولية تسللت بشكل طقوسي إلى اللغة اليومية، وبدأ

---

(2) Pierre Teilhard de Chardin (فرنسي 1881 ـ 1955) باحث يسوعي في التاريخ القديم، كان يعتقد أن المادة تحتوي على طاقة روحية استطاع من خلال البحث فيها العثور على صورة المسيح. (المترجم)

الاهتمام بالبعد الحرفي عوض إعمال العقل، بحيث أصبح من الممكن ممارسة العنصرية ضد أعمى في الحالة التي نطلق عليه اسم» «غير مبصر»، ونمارسها أيضا خاصة ضد أولئك الذين لا يتبعون القواعد الخاصة «باللياقة السياسية».

وماذا عن العنصرية؟ لقد كانت العنصرية النازية تمامية، ولقد كانت تدعي العلمية، ولكنها لم تكن أبدا أصولية في عقيدتها العنصرية. إن عنصرية غير علمية ك «العصبة الإيطالية» ليس لها نفس الجذور الثقافية التي للعنصرية ذات البعد العلمي المزيف (وفي الواقع ليس لها أي جذور ثقافية)، ومع ذلك فالأمر يتعلق بعنصرية.

وماذا عن اللاتسامح؟ هل يمكن اختصاره في هذه الاختلافات والروابط بين الأصولية والتمامية والعنصرية؟ لقد كانت هناك أشكال من اللاتسامح غير عنصرية (مثلا اضطهاد الهرطقيين أو لاتسامح الدكتاتوريات ضد معارضيها). إن اللاتسامح هو شيء أعمق من ذلك وهو أساس كل الظواهر التي تحدثت عنها.

إن الأصولية والتمامية والعنصرية العلمية المزيفة تشكل جميعها موقفا نظريا يفترض وجود عقيدة. إن اللاتسامح سابق على أية نظرية. وبهذا المعنى، فإن له جذورا بيولوجية، ويتجلى بين الحيوانات من خلال التنافس على فضاءات خاصة بكل نوع، ويتأسس على ردود أفعال انفعالية عادة ما تكون سطحية ـ لا نطيق وجود أولئك الذين يختلفون عنا، لأن لهم

ألوانا مختلفة، لأنهم يتكلمون لغة لا نفهمها، لأنهم يأكلون الضفادع أو لحم الكلاب أو القرد أو الخنزير أو الثوم، لأن على أجسامهم وشما...

إن اللاتسامح ضد المختلف أو الغريب أمر طبيعي عند الطفل الذي تدفعه غريزة تملك ما يرغب فيه. إن الطفل يربى شيئا فشيئا على التسامح، كما يربى شيئا فشيئا على احترام ملكية الغير، بل قبل ذلك، يربى على التحكم في عضلاته. ولكن مع الأسف، إذا كان الكل يتمكن من التحكم في جسده، فإن التسامح سيظل قضية تربوية دائمة عند الكبار، ذلك أن الحياة اليومية تعرضنا دائما لصدمة الاختلاف. يدرس المختصون عادة عقائد الاختلاف، ولكنهم لا يدرسون بالقدر نفسه ظاهرة اللاتسامح الهمجي، فهي ظاهرة تنفلت منهم وتنفلت من كل تناول نقدي.

ومع ذلك، فعقائد الاختلاف ليست مسؤولة عن اللاتسامح الهمجي: إنها تستثمر عمقا موجودا بشكل سابق على اللاتسامح المنتشر بين الناس. فلنأخذ «مطاردة الساحرات» مثالا على ذلك. لم تكن هذه المطاردة نتاج العصور المظلمة، بل ولدت في العصر الحديث. فـ Le malleus Maleficarum[3] (مطرقة الساحرات)كتب

(3) Le malleus Maleficarum أي محاولة لمحاربة الساحرات. وهو كتاب دبجته فرقة مسيحية كان مقرها ألمانيا، ويتعلق الأمر بسلسلة من المعتقدات المأخوذة من نصوص سابقة. وكان موجها بالأسلس إلى تعريف السحر ومحاربة الساحرات. ورغم أن الكنيسة المسيحية منعته سنة 1490 إلا أنه عرف انتشارا واسعا في كل أوروبا (المترجم).

قبل اكتشاف أمريكا بقليل، وكان معاصرا للإنسية الفلورانسية؛ أما La démonomanie des sorciers لجان بودان فهو مدين في وجوده لقلم رجل ينتمي إلى النهضة، وكان يكتب عن كوبرنيك.
لا أحاول الآن تفسير لماذا ينتج العالم الحديث تبريرات نظرية لمطاردة الساحرات. أريد فقط التذكير بأن هذه العقيدة استطاعت أن تفرض نفسها، لأن هناك ريبة شعبية تجاه الساحرات. وهو ما نعثر عليه في العصور القديمة (هوراس)، وفي les lois de rotharis في la summa theologia للقديس توماس الأكويني. لقد نُظر إلى هذه العقيدة باعتبارها واقعا يوميا، كما يأخذ القانون الجنائي بعين الاعتبار وجود لصوص. ولكن بدون هذه المعتقدات الشعبية، ما كان لعقيدة السحر أن تنتشر، تماما كما هو الحال مع الممارسة الممنهجة للاضطهاد.

لقد ولدت اللاسامية ذات الطابع العلمي المزيف في القرن التاسع عشر، ولم تصبح أنتروبولوجيا توتاليتارية وتمارس صناعة التصفية الجماعية إلا في القرن العشرين، ولكن كان من الممكن ألا توجد لو لم يكن هناك لمدة قرون، منذ فترة آباء الكنيسة، سجال مناهض لليهود، وكانت عند البسطاء من الناس لاسامية عملية اخترقت كل العصور، حيثما كانت هناك غيتوهات. ففي بداية القرن التاسع عشر، لم تخلق النظريات المناهضة لليعقوبية للمؤامرة اليهودية اللاسامية الشعبية، بل استغلت الكراهية للمختلف المتغلغلة في النفوس.

إن أخطر أشكال اللاتسامح هي التي تولد خارج أية عقيدة،

ومصدرها دوافع بسيطة. ولهذا السبب، فإن الحجج العقلية لا يمكن لا نقدها ولا توقيفها. إن الأسس النظرية لكتاب «كفاحي» يمكن دحضها بترسانة من الحجج البسيطة، ولكن الأفكار التي يقترحها الكتاب تتحدى الموضوعية وستتحداها دائما، وذلك لأنها تستند إلى لاتسامح همجي مستعصي على كل نقد. إني أعتبر لاتسامح «العصبة الإيطالية» أخطر من لاتسامح الجبهة الوطنية (في فرنسا). إن وراء لوبين [4] رجال دين خانوا، ولا شيء عند بوسي Bossi[5]، عدا دواع همجية.

انظروا إلى ما يحدث الآن في إيطاليا حيث آلاف الألبانيين اخترقوا حدودنا في ظرف أسبوع. إن النموذج العمومي الحكومي هو الاستقبال، والذين يريدون إيقاف الهجرة، وقد لا يساندهم أحد، يستعملون عامة حججا اقتصادية ديموغرافية. ولكن كل نظرية ستصبح عبثية تجاه اللاتسامح الذي يزحف ويستولي على مواقع جديدة يوميا. إن اللاتسامح الهمجي يقوم على حركة مقولية مغلقة يعيرها بعد ذلك إلى كل العقائد العنصرية المقبلة: إذا كان الألبان الذين دخلوا إيطاليا في السنوات الأخيرة قد أصبحوا لصوصا أو عاهرات (وهذا صحيح)، فكل الألبان إذن هم لصوص وعاهرات.

إنها دائرة رهيبة لأنها شديدة الإغراء: يكفي أن تُسرق منا

---

(4) جان ماري لوبين: زعيم حزب سياسي يميني مناهض للمهاجرين واليهود في فرنسا (المترجم).

(5) Bossi زعيم العصبة الإيطالية، وهي حزب يميني (المترجم)

حقيبة في مطار بلد ما لكي نعود إلى المنزل قائلين يجب أن نحذر مواطني هذا البلد.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن أخطر أشكال اللاتسامح هو لاتسامح الفقراء، أول ضحايا الاختلاف. لا وجود لعنصرية بين الأغنياء: إنهم قد ينتجون عقائد للعنصرية، ولكن الفقراء ينتجون الممارسة، وهي أخطر من العقيدة.

إن المثقفين لا يستطيعون الوقوف في وجه اللاتسامح الهمجي، ذلك لأن الفكر أعزل. ولكن سيكون الأوان قد فات عندما يتصدون لللاتسامح العقائدي، ذلك أن اللاتسامح عندما يصبح عقيدة يكون من العبث محاربته، ومن يود القيام بذلك سيكون أول ضحاياه.

و هنا مكمن التحدي مع ذلك. من العبث تربية كبار يقتتلون فيما بينهم، لأسباب إتنية ودينية، على التسامح. لقد فات الأوان. وعلى هذا الأساس، تجب محاربة اللاتسامح الهمجي في الأصول، من خلال تربية دائمة يجب أن تبدأ من الصبا، قبل أن تكتب في الكتاب وقبل أن تصبح خبزا سلوكيا سميكا وصلبا.

3 ـ اللامسموح به

لقد لاحظتم ذلك، ليس هناك أكثر استفزازية من سؤال أحدهم ماذا وقع لك وأنت تعض لسانك. «ما رأيك؟» يسألونني في هذه اللحظة حيث الكل (باستثناء قلة قليلة) يفكر الشيء

نفسه في قضية بريبكي[6]. وسيخيب ظنهم جميعا إذا أجبتم أنكم تستنكرون بطبيعة الحال هذا، ذلك أن الأمر في العمق يعود إلى أن الكل يسأل أملا في أن يسمع كلمة، أو شرحا يخفف من إدانته أو غضبه.

إن المرء يحس بالحياء في أن يتكلم، في الوصول بقليل من الجهد إلى الإجماع العام، فاضل ضمن الفضلاء في قوس يبدأ من الشيوعيين وينتهي باليمين المتطرف. كما لو أن المحكمة العسكرية لروما قد وحدت بين كل الإيطاليين. كلنا بجانب العدل.

ألا تكون قضية بريبكي أكثر بكثير من حلقة صلبة في جميع الحالات (مجرم غير نادم، ومحكمة جبانة)، وألا تلزمنا جميعا بمزيد من التعمق أكثر مما نتصور، ألا توحي أننا نحن أيضا لسن أبرياء.

ولنواصل ونحاول أن نعرف ماذا حصل وفق القوانين الجاري بها العمل. كان من الممكن، وفق هذه القوانين، إدانة

---

(6) Erich Pribke قبطان نازي شارك، تحت إمرة الماجور كابلر في مجزرة fosses ardéatines (مارس 1944 إعدام 335 رهينة كرد على عملية أودت بحياة 35 ضابطا من :ss وكان الحساب مقابل كل ضابط ألماني يعدم 10. (أضيف إلى القائمة خمسة أسماء). ولقد تم التعرف عليه في الأرجنتين ونقل سنة 1995 إلى إيطاليا وحوكم في روما من طرف محكمة عسكرية وأدانته بجريمة القتل يوم فاتح غشت 1996 ولكنها أطلقت سراحه بحكم تقادم الجريمة. إن نص إيكو كتب أثناء المحاكمة التي تابعها الشارع الإيطالي بانفعال كبير. وقامت محكمة النقض في أكتوبر بإلغاء الحكم، وحوكم من جديد وحكم عليه في 7 مارس بالسجن المؤبد.

بريبكي بالسجن المؤبد، ولكن بلغة القضاء، فإننا سنشكك في سلوك المحكمة العسكرية ذاتها. لقد اعتبر الرجل مذنبا اقترف جريمة فظيعة، وكان على المحكمة، معرفة هل هناك ظروف للتخفيف. والحال أن الظروف صعبة، فبريبكي لم يكن بطلا بل جبان بائس، حتى وهو يعترف بفظاعة ما ارتكب، لقد خاف أن يؤدي ثمن رفضه؛ لقد قتل وأضاف خمسة إلى قائمة القتلى، ولكن من المعروف أن المرء عندما يكون متعطشا للدم يصبح بهيمة. لقد كان مذنبا نعم، ولكن عوض أن نحكم عليه بالمؤبد، فإننا نضيف إليه سنوات أخرى؛ لقد تم إنقاذ العدالة، هناك تقادم، وانتهت فترة مؤلمة من تاريخنا. ألم يكن من الممكن أن نتصرف بالطريقة نفسها مع راسكولينكوف[7] الذي قتل عجوزا بدون مبررات عسكرية؟

نحن من انتدب القضاة وجعلهم يتصرفون وفق القوانين الجاري بها العمل، والآن نواجههم بمقتضى أخلاقي، بهوى، ولكنهم سيردون بأنهم قضاة وليسوا قتلة.

وهناك، بالإضافة إلى ذلك، جزء كبير من الاعتراضات الخاصة بتأويل القوانين المكتوبة. لقد كان على بريبكي أن يخضع للأوامر، وذلك ما تقتضيه القوانين العسكرية لبلد يخوض حربا؛ هذا ليس صحيحا، هناك قوانين، وقد تكون

(7) Raskolnikov بطل رواية «الجريمة والعقاب» للكاتب الروسي دوستوفسكي.، لقد قتل العجوز المرابية وأخذ أموالها (المترجم).

نازية، تبيح له ألا يطبق قانونا غير عادل، بل كان من الممكن ألا يحاكم وفق القوانين العسكرية، لأن فرقة ss كانت جسما من الشرطة المتطوعة. ولكن الأعراف الدولية تبرر الحق في الرد بالمثل، هذا صحيح، قد يجيب البعض، ولكن في حالة الحرب فقط، والحال أن ألمانيا لم تعلن أبدا الحرب على المملكة الإيطالية، فالألمان وهم يحتلون بطريقة غير شرعية بلدا لم يعلن عليهم الحرب رسميا لا يمكنهم أن يؤاخذوا شخصا متنكرا في ثوب كناس مجهول فجر رتْلا عسكريا.

لن نخرج من هذه الدائرة ما لم نقرر أن الإنسانية في مواجهة أحداث استثنائية لا يمكنها تطبيق القوانين الجاري بها العمل، بل عليها أن تتحمل مسؤوليتها وتبلور قوانين أخرى.

لم نستخلص بعد كل الخلاصات المتعلقة بهذا الحدث الذي وسم عصرنا ألا وهو محاكمة نورانبورغ. وبلغة الشرعية الدولية أو الاستعمال الدولي، كانت هذه المحاكمة شططا في استعمال السلطة. لقد كنا متعودين على أن تكون الحرب لعبة تحكمها قواعد، بحيث يقبل الملك المنهزم في النهاية قريبه المنتصر، وأنتم ماذا سيكون موقفكم؟ تلقون القبض على المنهزمين وتشنقونهم؟ نعم أيها السادة، سيجيب الذين نصبوا محاكمة نورانبورغ: نعتقد أن في هذه الحرب وقعت أشياء تجاوزت المسموح به، ولهذا سنغير من طبيعة القوانين. ولكن هذا غير المسموح به هو كذلك وفق قيم المنتصر، أما قيمنا فمختلفة وأنتم لا تحترمونها؟ لا، بما أننا هزمناكم وبما أن هناك في

قيمكم ما يمجد القوة، فإننا نطبق القوة: سنشنقكم. وما سيقع في الحروب الآتية؟ إن الذين سيعلنون هذه الحروب سيعرفون أنهم إذا خسروها سيشنقون؛ فليفكروا مرتين قبل إعلانها. ولكن أنتم أيضا قمتم بأشياء فظيعة، نعم فعلنا ذلك، ولكن أنتم من يقول ذلك، أنتم المنهزمين، أما نحن فقد انتصرنا، إذن نحن من سيشنقكم. ولكن عليكم تحمل مسؤولية ذلك.

أنا ضد عقوبة الإعدام، وحتى لو ألقيت القبض على هتلر، فإنني سأبعث به إلى سجن ألكاتراس[8]: ولهذا سأستعمل ابتداء من الآن كلمة «الشنق» بالمعنى الرمزي أي عذابا شاقا ورسميا. وباستثناء الشنق، فإن منطق نورانبورغ ليس صعبا. ففي مواجهة سلوكات غير مسموح بها، يجب أن تكون عندنا الشجاعة لتغيير الوقائع، بما فيها القوانين. فهل بإمكان محكمة هولندية الحكم على سلوك شخص من صربيا وكرواتيا؟ وفق القواعد القديمة لا، ووفق القوانين الجديدة نعم.

في نهاية 1992 انعقد بباريس مؤتمر تناول موضوع التدخل شارك فيه حقوقيون وعسكريون ونشطاء في حركة السلم وفلاسفة وسياسيون. وفق أي حق ووفق أية معايير يمكن التدخل في شؤون بلد آخر عندما نعتبر أن هناك أشياء حدثت لا يمكن للمجموعة الدولية أن تسكت عنها؟ فإذا استثنينا الحالة الواضحة لبلد يتوفر على حكومة شرعية ويطلب المساعدة لمواجهة غزو،

(8) Alkatraz سجن شهير في الولايات المتحدة الأمريكية (المترجم).

فإن كل الحالات الأخرى تحتاج إلى الكثير من التدقيق. من يطلب مني التدخل؟ جزء من المواطنين؟ وإلى أي حد تملك هذه الجهة صفة التمثيلية داخل البلد، وإلى أي حد لا يمكن اعتبار هذا التدخل، تحت غطاء نبيل، تدخلا، إرادة إمبريالية؟ (انظر درس ساغونت[9]؟ هل نتدخل عندما يكون ما يحدث في بلد ما مناقضا لمبادئنا الأخلاقية. ولكن هل مبادئنا هي مبادئهم؟ وهل نتدخل لأن في بلد ما تمارس من آلاف السنين عادة أكل لحم البشر التي تعد في تصورنا أمرا فظيعا، أما عندهم فتندرج ضمن ممارسة دينية؟ ألم ينصب الإنسان الأبيض بهذه الطريقة، نفسه مدافعا عن الفضائل، واستعبد شعوبا تنتمي إلى حضارات قديمة رغم أنها مختلفة عن حضارتنا؟

إن الجواب الوحيد الذي يبدو لي مقبولا هو القول إن التدخل شبيه بثورة: لا وجود لأي قانون سابق يحبذ ذلك، على العكس من ذلك، فما نقوم به يتم ضدا على القانون والأعراف. إن الفرق هو أن قرار التدخل الدولي ليس وقوفا في وجه باحثين عن الماس، ولا ضد حركة شعبية تستعصي على الضبط، ولكنه حصيلة نقاش بين حكومات مختلفة وشعوب مختلفة. لقد قُرر، رغم ضرورة احترام الآراء والاستعمالات

---

(9) ساغونت مدينة إسبانية انحازت إلى روما في حربها ضد قرطاج بقيادة حنابعل وخضعت لحصار دام 8 اشهر، ودمرت عن آخرها بعد مقاومة شرسة سنة 218 قبل الميلاد. وكان هذا الحدث إيذانا بالحرب البونية الثانية التي بدأت سنة 212 قبل الميلاد. (المترجم).

والممارسات ومعتقدات الغير، بأن هناك شيئا ما بدا لنا هنا أنه لا يمكن التسامح في شأنه. إن القبول بهذا غير المسموح به يضع تساؤلات حول هويتنا. يجب تحمل المسؤولية وتحديد ما هو غير مسموح به، ومن ثمة التصرف والاستعداد لتأدية ثمن أي خطأ.

عندما يظهر للوجود سلوك جديد غير مسموح به، فإن عتبة هذا غير المسوح به ليس هو ما تحدده القوانين القديمة. يجب خلق قوانين جديدة. ويجب أن نعمل على أن يكون هذا الإجماع حول هذه العتبة الجديدة واسعا بما فيه الكفاية، ويجب أن يتجاوز الحدود الوطنية وأن تؤيده المجموعة الدولية؛ إنه مفهوم غير محدد بدقة، ولكنه أساسي وبديهي بداهة دوران الأرض. ولكن بعد ذلك، يجب أن نختار.

لقد وضعت النازية والهولوكوست عتبة جديدة للذي لا يمكن السماح به. لقد وقعت إبادات جماعية كثيرة في القرون الأخيرة، وقد غضضنا، بهذا الشكل أو ذاك، الطرف عنها. لقد كنا ضعفاء، وكنا همجا، ولم نكن نعرف ماذا يجري على بعد كيلومترات من قريتنا. ولكن هذه الإبادة الأخيرة قد صودق عليها (وتحققت) بمعنى «علمي» مع توصية صريحة بالإجماع، بما فيها الإجماع الفلسفي، واقترحت من خلال وسائل الدعاية باعتبارها نموذجا يجب أن يعم المعمور كله. إنها لم تمس ضميرنا الأخلاقي فحسب: لقد شككت في فلسفتنا وفي علمنا وفي ثقافتنا وفي معتقداتنا الخاصة بالخير والشر. إنها تريد أن

تلغي كل شيء. ولم يكن من الممكن ألا نجيب عن هذا النداء. والجواب الوحيد كان هو ألا يحدث هذا الشيء أبدا لا الآن ولا بعد خمسين سنة ولا في القرون المقبلة.

واستنادا إلى هذا غير المسموح به سيتبلور الحذر من التوافق العفن الذي يقول به «المشككون» الذين يبنون مشاريع من أجل معرفة هل كان هناك حقا 6 ملايين ضحية، كما لو أن أرقام 5 أو 4 أو 2 قابلة للنقاش. وهل ماتوا بالغاز أم ماتوا فقط لأنه ألقي بهم جميعا في مكان دون عناية أو علاج؟ وهل ماتوا فقط أم أنهم ماتوا نتيجة حساسية للوشم؟

ولكن التعرف على غير المسموح به معناه الحكم بالشنق على كل متهمي نورانبورغ، حتى ولو لم يكن هناك سوى ميت واحد، وبتهمة عدم مد يد العون إلى شخص في وضعية خطيرة. إن غير المسموح به الجديد لم يكن فقط الإبادة الجماعية، بل التنظير لها. وهذا التنظير يلزم الجميع ويلقي المسؤولية عليهم، بمن فيهم منفذو المجزرة. ففي مواجهة غير المسموح به تسقط جميع التمييزات حول النوايا وحسن النية والخطأ: ليس هناك سوى المسؤولية الموضوعية. ومع ذلك سيقولون كنا ندفع بالناس إلى غرف الغاز لأنه طلب منا ذلك، وفي الواقع كنا نعتقد أنهم يريدون تطهيرهم. هذا لا يهم، أنا آسف، نحن هنا أمام لحظات انبثاق ما لا يمكن السماح به، أما القوانين القديمة وظروفها فلا قيمة لها هنا: نحكم عليكم بالشنق.

وبطبيعة الحال، لتأكيد هذه القاعدة السلوكية على المجتمع أن يكون مستعدا لاتخاذ كل القرارات حتى ولو كانت قاسية، ويكون منسجما في اتخاذه لكل مسؤولية (التي تصدق أيضا على غير المسموح به في المستقبل، وتفرض علينا التحديد الدائم لبؤرة غير المسموح به). ما يزعجنا باعتباره عنصرا غامضا في قضية بريبكي هو إحساسنا أننا مازلنا بعيدين عن هذا القرار. وهذا أمر يخص الجميع، الشبان والشيوخ وكل الإيطاليين. الكل تنصل من مسؤوليته: هناك قوانين، اتركوا هذا البائس بين يدي العدالة.

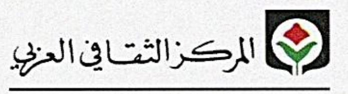
بالتأكيد يمكن أن نقول الآن إننا فقدنا هذه القدرة الجماعية على تحديد اللامسوح به بعد محاكمة روما. وحتى قبل ذلك، فقد كانت بعيدة جدا. وهذا ما يحز في نفوسنا، اكتشفنا أننا نتقاسم المسؤولية (دون أن نعترف بذلك). وإذا كان الأمر كذلك، فلا تسألونا لمن تدق الأجراس.

أمبرتو إيكو

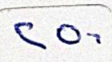
دروس في الأخلاق

يضم هذا الكتاب خمس مقالات تتناول مجموعة من القضايا الخاصة بالوجود الانساني، منها الأخلاق والعلمانية والتديّن والثقافة والمثقّف والعلاقة مع الآخر... وتبقى التساؤلات حول مقولة الأخلاق القيمة الرئيسيّة للكتاب. فمقولات مثل سوء الفهم ، والجهل بخصوصيات الآخر، والدونية الحضارية والتفوق العرقي تندرج ضمن الأخلاق التي تُعتمد في الحكم على الآخر وتصنيفه. فالـ"نحن" غامضة دائماً، لأنها تعتمد معاييرها للحُكم وتحديد المقبول والمرفوض والمحبّذ والمكروه.. وعلى قاعدة هذه المعايير تمّت، في كثير من مراحل التاريخ مقاضاة "الآخرين" والحُكم على سلوكهم، بل وإعلان الحرب عليهم. هذه الـ"نحن" التي خاضت الحرب في أفغانستان والعراق ليست آتية من خارج التاريخ، بل هي سيرورة حضارية تشكّلت هويّتها في علاقتها بالآخرين وليست منفصلة عنهم.

لا يقدم هذا الكتاب دروساً، بل يستحضر تجارب التاريخ ويتأمّلها. لا يمجّد أخلاقاً، ولا يحطّ من أخرى، بل ينظر إلى الفرد باعتباره مسؤولاً عن سلوكه.



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
www.ccaedition.com
markaz@wanadoo.net.ma





لوحة الغلاف: بول كلي